كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعفٍ ثم جعلَ من بعد ضعفٍ قُوةً ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشَيْبةً يخلقُ ما يشاءُ وهو العليمُ القديرُ ﴾ . (الروم : ٥٤)

دلالة إحياء الأرض على البعث

وقوله ﴿ وترى الأرضَ هامدةً ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدى : ميتة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربَتْ وأنبتتْ من كُلِّ زوج بهيج ﴾ (الحج : ٥) أى فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ﴿ وربت ﴾ أى ارتفعت لما سكن فيها من الثرى : ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتتْ من كُلِّ زوج بهيج ﴾ أى حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحقُّ ﴾ أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء . ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ (الحج : ٦) أى كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كُلِّ شىءٍ قدير ﴾ (فصلت : ٣٩) .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكُونُ ﴾ (يس : ٨٢)

﴿ وأن الساعةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فيها ﴾ أى كائنة لا شك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعثُ مَنْ فى القبور ﴾ (الحج : ٧) أى يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمماً ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى :

﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسى خَلْقَهُ قال مَنْ يُحيي العِظامَ وهى رميمٌ * قُلْ يُحييها الذى أنشأها أول مَرَّةٍ وهو بكل خَلْقٍ عَليم * الذى جعلَ لكم من الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدون ﴾ (يس : ٧٨ — ٨٠)

والآيات في هذا كثيرة .

قال الإمام أحمد : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبي رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر أنه قال يارسول الله : أكُلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به ؟ قلنا : بلى . قال : « فالله أعظم » قال : قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى أهلك ممحلاً » ؟ قال : بلى . قال : « ثم مررت به فاهتز خضيرا ؟ قال : بلى . قال : « فكذلك يحيى الله الموتى » وذلك آيته في خلقه .

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به .

ثم رواه الإمام أحمد أيضاً : حدثنا على بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبي رزين العقيلي قال : أتيت رسول الله ﷺ وقلت : يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : « أمرْرت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور » والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبي الحجاج عن معاذ بن جبل قال : « من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور دخل الجنة » .

وهكذا انتهى النموذج الأول من نماذج إثبات البعث في القرآن الكريم بتقديم الأدلة ، ثم إثبات النتيجة .

✿ ✿ ✿

أما النموذج الآخر ، فإنه يبدأ بقضية البعث ، ثم يقيم الأدلة الكونية والآفاقية على أنه حق واقع .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أو لم يَرَ الإنسانُ أنّا خلقناه من نُطفةٍ فإذا هو

خصيمٌ مُبينٌ * وضربَ لنا مثلاً ونسى خَلْقه قال مَنْ يُحيى العظامَ وَهى رميمٌ ﴾ ؟ (يس : ٧٧ ، ٧٨)

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة :

١ — **﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أول مَرَّة وهو بكل خَلْقٍ عليم ﴾** .

٢ — **﴿ الذى جعلَ لكم من الشجر الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون ﴾** .

٣ — **﴿ أوَليس الذى خَلَق السماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أنْ يخلق مثلهم بلَى وهو الخلاَّق العليم ﴾** .

٤ — **﴿ إنما أمره إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ له كُنْ فيكُون ﴾** .

٥ — **﴿ فَسُبحان الذى بيده مَلَكوتُ كُلِّ شىء وإليه تُرْجعون ﴾** (يس : ٧٩ — ٨٣) .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاماً جليلاً وجميلاً .

يقول رحمه الله تعالى :

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة : « جاء أبىّ بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ، ونزلت هذه الآيات من آخر يس **﴿ أوَ لم يرَ الإنسانُ أنا خلقناهُ من نُطْفةٍ .. ﴾** والألف واللام فى الإنسان للجنس يعم كل منكر للبعث .

قوله تعالى : **﴿ أنّا خلقناهُ من نُطْفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ ﴾** أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين ، كما قال عز وجل : **﴿ ألم نخلقكم من ماءٍ مهينٍ * فجعلناهُ فى قرارٍ مكينٍ * إلى قدرٍ مَعْلومٍ ﴾** (المرسلات : ٢٠ — ٢٢)

وقال تعالى : ﴿ إنّا خلقنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمْشاجٍ ﴾ (الإنسان : ٢) أى من نطفة من أخلاط متفرقة . فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ .

كما قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبو المغيرة حدثنا حريث حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : ابن آدم : أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدّلتك مشيتَ بين بُرْديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدق وأنَّى أوان الصدقة ؟ .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُحيى العظامَ وهى رَميمٌ ﴾ (يس : ٧٨) أى إنه — أى الإنسان الكافر — استبعد إعادة الله تعالى ذى القوة العظيمة التى خلقت السماوات والأرض — للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده .

ولهذا قال عز وجل : ﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أولَ مَرَّةٍ وهو بكُلِّ خَلْقٍ عليم ﴾ (يس : ٧٩)

أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته ﷺ يقول : « إن رجلاً حضره الموت . فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا متّ فاجمعوا لى حطبا كثيرا جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت ، فخذوها فدقوها فذروها فى اليمّ ، ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله عز وجل له » .

فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فى يوم رائح ، أى كثير الهواء ، ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له.

وقوله تعالى : ﴿ **الذى جعلَ لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ (يس : ٨٠) أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فَعَّال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شىء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ **الذى جعلَ لكم من الشجرِ الأخضرِ ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدُون** ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر ، قادر على أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء .

✿ ✿ ✿

تكذيب الجاحدين

ثم إنه سبحانه بين فى قوله : ﴿ كذبت قبلهم قومُ نوح ﴾ (ق : ١٢) الآيات ــ أن إنكار المعاد وتكذيب الرسل : هو عادة كل جبار عنيد ، يكذب بالحق بعد ما تبين ، وينكر الواقع بعد ما اتضح ، فلا فائدة فى الجدل معه فإنه لا يستخرج منه العناد إلا سطوة ربِ العباد ، وأخذه بالعذاب والعقاب ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرسلَ فحقَّ وعيد ﴾ (ق : ١٤) .

ثم بين سبحانه وتعالى دليلاً نفسياً على إثبات الإعادة لهذا الخلق ، بأنه سبحانه لما بدأ هذا الخلق لم يعى ، ولم يمسسه لغوب ولا تعب ، فيعجز عن إعادته ثانياً .

فإن كانوا قد عموا وصموا عن الأدلة السابقة كلها : السماوية والأرضية ، فليفكروا فى أنفسهم ، وليتعقلوا فى نشأتهم الحاضرة التى هم فيها ، فإنهم الآن يتقلبون فى خلق جديد يتجدد عليهم . غير أنهم قد التبس الأمر عليهم ، فظنوا أنهم هم فى كل حال ، وأنهم لا يعتريهم تبديل ولا تحويل ولا تخليق جديد . ولكن الأمر ليس بذلك ، بل إنهم فى كل لحظة ، بل فى أقل من أجزاء اللحظة ، تفنى منهم أجزاء خلقية ، وجواهر فردية ، ويخلق الله تعالى غيرها ، ويجدد عليهم وجودها ، وهكذا .

وهذا الأمر لا يخالف فيه إلا جاهل مكابر .

شبه المنكرين و دحضها

يقول الأستاذ عبد الله سراج الدين تحت عنوان « شبه المنكرين للإعادة وبطلانها » :

لقد أزال الله تعالى شبه المنكرين للإعادة وأبطلها كلها ، وذلك أن شبه

المنكرين للإعادة ترجع إلى ثلاثة أنواع :

الأول : اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض ، واختلاطها بأجزاء أخرى ، فكيف يحصل التمييز بينهما ؟

الثانى : أن القدرة لا تتعلق بذلك فى زعم المنكرين ، وأن ذلك غير ممكن فى زعمهم .

الثالث : زعم المنكرين أن الإعادة لا فائدة منها ، وأن الحكمة تقتضى دوام هذا النوع الإنسانى جيلاً بعد جيل هكذا أبداً على وجه البقاء .

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد مبنية على ثلاثة أصول ، بها أزاح الله تعالى شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة .

أولاً : تقرير القرآن الكريم سعة علم رب العالمين ، وإحاطته بكل شىء وأنه لا يخفى عليه شىء ، ولا يلتبس عليه شىء ، فقال سبحانه : ﴿ **قد عَلِمنَا ما تنقصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حفيظٌ** ﴾ (ق : ٤) أى فلا يلتبس علينا شىء ، ولا يغيب عنا جزء ، بل نحن بكل جزء عالمون ، وله حافظون فى عالم عندنا . فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم فهى لا تغيب عنا ، بل هى محفوظة لدينا .

ثانياً : تقرير القرآن الكريم كمال قدرة رب العالمين ، وأنه لا يعجزه شىء .

قال تعالى : ﴿ **أوَ ليسَ الذى خلقَ السماواتِ والأرضَ بقادرٍ على أن يخلقَ مثلهم بلى وهو الخلاَّقُ العليم** ﴾ (يس : ٨١) أى فالذى خلق ما هو أكبر من الإنسان وأشد ، وهو السماوات والأرض هو قادر على إعادة هذا الإنسان ، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته ، ولئن فرض أنها أعظم من البدء ، فلقد خلق ما هو أعظم وأكبر من الإنسان وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان .

﴿ **إنما أمره إذا أرادَ شيئا أن يقول له كُنْ فيكُون** ﴾ (يس : ٨٢)

ثم إنه أرانا أمورا واقعية مشهودة فى الإنسان والحيوان والطيور ، أماتها وفرق أجزاءها ، ثم أعادها وأحياها ، فذكر لنا قصة الذين أماتهم وهم ألوف ثم أحياهم ، وقصبة السبعين كما تقدم ، وقصة العزير عليه السلام ، ونحوها كما تقدم ،

ليكون ذلك حجة مشهودة ، دالة على قدرته سبحانه على إحياء الموتى .

ثالثا : تقرير القرآن الكريم كمال حكمة رب العالمين ، وأن من مقتضى حكمته أن يعيد الخلق ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويميز الله الخبيث من الطيب ، وليأخذ الحق من الظالم للمظلوم ، ومن الباغى لمن بغى عليه ، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب ، فهو سبحانه لم يخلق العالم عبثاً ، بل خلق العالم بالحق ، ولا بد أن ينتهى أمر العالم للحق .

قال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما لاعبين** ﴾ (الدخان : ٣٨)

وقال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحقِّ وإنَّ الساعةَ لآتية فاصفح الصفحَ الجميلَ** ﴾ (الحجر : ٨٥)

وقال تعالى : ﴿ **أَفَحسبتم أنما خلقناكم عَبثاً وأنكم إلينا لا تُرْجعون * فتعالى الله الملكُ الحقُّ** ﴾ (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

وقال تعالى : ﴿ **أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئاتِ أن نجعلهُمْ كالذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سواءً محياهم ومماتهم ساءَ ما يحكمون** ﴾ (الجاثية : ٢١) .

يعنى أن الحكم بالتساوى بين المتناقضين هو حكم سىء مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية ، فكيف عند حكمة الخالق التى لا تتناهى ؟ .

فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار ، ولا يتساوى الأعمى والبصير ، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فلا يتساوى المسيئون مع المحسنين ، ولا الطالح مع الصالح ، بل لا بد من التمييز بينهما فى عالم آخر تظهر فيه النتائج ، وتبرز فيه الدقائق ، وتحق فيه الحقائق ، وهو يوم الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ؟ .

قال تعالى : ﴿ **الحاقةُ * ما الحاقةُ * وما أدراكَ ما الحاقةُ** ﴾ (الحاقة : ١ ــ ٣)

الفصل الثالث

كلمة العلم فى إثبات البعث

- النار من الشجر الأخضر .
- عود على بدء .
- عظمة الكون .
- الخلية وحدة الحياة .
- موت الخلايا

كلمة العلم فى إثبات البعث

فماذا يقول العلم فى هذا العالم البديع الصنع ؟ .

إننا نسوق نبذة يسيرة مما قاله العلم فى هذا الكون ، لا تزيد عن كونها شعاعاً متسللاً من حنايا النافذة .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ (الكهف : ١٠٩)

النار من الشجر الأخضر

يقول المهندس عثمان حلمى فى كتابه « من آيات الله فى الكون » تحت عنوان « النار من الشجر الأخضر » :

« فى عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول فى إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها . لأننا فى الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التى تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة . فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة مسألة تكوين الخشب فى جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لا غنى لنا عنها فى حياتنا اليومية وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وتذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرأيتم النارَ التى تُورُون * أأنتم أنشأتم شجرتَها أم نحن المنشئون ﴾ (الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

وعندما نتدبر معنى هذه الآية نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة ، مثل الكيمياء ، والنبات ، والأحياء ، والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم

تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية وصلتها بحياة الإنسان وما خلق الله فى السماوات والأرض .

وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة مع آيات القرآن الحكيم .

فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسواها وقدَّرها ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة .

وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكوين الخشب :

دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتى منه ، وادخاره ليوقده عند الحاجة . وما الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طُمرت فى الأرض ، وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن استغرقت آلاف السنين ، وطرأ عليها فى غضونها تغييرات مختلفة ، فتكربنت ، أى تفحمت وأصبحت ذلك الفحم المعروف .

والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية .

فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه فى جسمه .

ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب وما نتج عنها من الفحم إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون ، الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى . ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى ، ويمثله فى جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية فى درجة الحرارة العادية ، دون عناء ملحوظ ولا أعراض ظاهرة ، فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة

مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض .

والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون . ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخضير أو الكلوروفيل . ولذا فإن الشجر الأخضر — والأخضر دون سواه — هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية . وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى أكسيد الكربون .

ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأكسجين ، ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر . على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد . ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ينتقل من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب ، فيخزن فيها ثم يتركز تدريجيا ، ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة ، مثل اللجنين والسوبرين ، فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ٠٫٠١ من الملليمتر ، ككثير مثلها من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة . ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات ، فقامت بعملها المعجز .

وبعد .. فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل ، أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا ، لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال ، وهو الحيوية التى أودعها الخالق سبحانه

وتعالى فى مادة الخلية ، وهداها لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها . فهو الذى قَدَّر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى..

وأنىَّ للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقا محدودة ، ولم يؤته من العلم إلا قليلاً . فإذا طعن فى السن، وبلغ من العمر أرذله ، نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ **ومنكم مَنْ يُتوفَّى ومنكم منْ يُردُّ إلى أرذلِ العمرِ لِكى لا يعلمَ من بعدِ عِلْمٍ شيئاً** ﴾ (الحج : ٥) .

هذا الإنسان الذى يجأر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية ، وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالاً ودماراً ، يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم — قد نسى خلقه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثالاً فقال ﴿ **مَنْ يُحيى العِظامَ وهى رَميمٌ** ﴾ ؟ (يس : ٧٨)

فأنزل الله فى القرآن على نبيه ﷺ : ﴿ **قُلْ يحييها الذى أنشأها أوَّل مَرَّةٍ وهو بكُلِّ خَلْقٍ عليم** ﴾ (يس : ٧٩) ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم ، لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى .

وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان ما لم يعلم ، ويعظه ، ويظهر له قلة حيلته ، إلى جانب قدرته تعالى التى لا تُحدُّ ، فقال : إن الذى أنشأها أول مرة ثم يحييها ، هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص لاحتوائه على مادة الكلوروفيل كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامداً فى موضعه ، قد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ، ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً ، كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول :

﴿ يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له إن الذين تَدْعون من دُون الله لنْ يخلقوا ذُباباً ولو اجتمعوا له وإن يَسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ ﴾ (الحج : ٧٣)

فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خَلْق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة ، والذبابة الدنيئة ، إزاء خلق السماوات والأرض ، وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى :

﴿ لَخَلْقُ السماواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون ﴾ (غافر : ٥٧) .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا وفى أنحاء الكون ، ونبهنا إلى التمعن والتفكير فى كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم .

فاستمع لقوله تعالى :

﴿ أفَلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ * وإلى السماءِ كيف رُفِعَتْ * وإلى الجبالِ كيف نُصبتْ * وإلى الأرضِ كيف سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ١٧ ــ ٢٠) .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة وهى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولجيا : علم طبقات الأرض والجغرافيا . ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآية الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم : سبحان الخلاق العظيم ؛ دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات » .

* * *

عود على بدء

بعد ما استمعنا إلى كلمة العلم فى الشجر الأخضر ، نعود إلى كلام العلامة ابن كثير فى تفسير الآيات السابقة :

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السماوات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأراضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ **لخلق السماوات والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ** ﴾ (غافر : ٥٧) .

وقال عز وجل : ﴿ **أوَ ليس الذى خلقَ السماواتِ والأرْضَ بقادرٍ على أنْ يخلقَ مثلهم** ﴾ (يس : ٨١) أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير .

وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل : ﴿ **أوَ لَم يَرَوْا أن الله الذى خلقَ السماواتِ والأرضَ ولم يَعْىَ بخلقهن بقادرٍ على أن يُحيىَ الموتى بلى إنه على كُلِّ شىءٍ قدير** ﴾ (الأحقاف : ٣٣)

وقوله تعالى : ﴿ **بلى وهو الخلاَّقُ العليمُ * إنما أمرهُ إذَا أرادَ شيْئاً أن يقولَ له كُنْ فيكون** ﴾(يس : ٨١ ، ٨٢)أى : إنما يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن . قوله : (فيكون) أى : يوجد دون ما تراخ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن نمير ، حدثنا موسى بن المسيب عن شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذر رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول : يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئا فإنما أقول له كن فيكون » .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبحان الذى بيده ملكوتُ كُلّ شىء وإليه تُرْجعون ﴾ (يس : ٨٣)

أى تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ؛ وإليه يرجع الأمر كلهُ ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَسُبحانَ الذى بيده مَلَكُوتُ كُلّ شىء ﴾ كقوله عز وجل ﴿ قُلْ مَنْ بيده ملكوتُ كُلّ شىء ﴾ (المؤمنون : ٨٨) وكقوله تعالى : ﴿ تباركَ الذى بيده الملكُ ﴾ (الملك : ١) فالملك والملكوت واحد في المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت .

ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا حماد عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة عن حذيفة وهو ابن اليمان رضى الله عنه قال : « قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات ، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ثم قال : الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة . وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه . فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاى » .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى حمزة مولى الأنصار ، عن رجل من بنى عبس عن حذيفة رضى الله عنه : أنه رأى رسول الله ﷺ يصلى من الليل وكان يقول : الله أكبر ثلاثاً ، ذى الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع ، فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه وكان يقول فى قيامه « لربى الحمد » ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول فى سجوده « سبحان ربى الأعلى » ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من

سجوده ، وكان يقول : « رب اغفر لى ، رب اغفر لى » فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام » .

وبعد ، فقد طفنا بهذه الروضة القرآنية الفيحاء من خواتيم سورة يس ، وخشعنا بعد ما استمعنا إلى آيات القدرة التى نصبها الله تعالى فى الآفاق والأنفس .

سُبْحانك اللهمَّ أنت الواحد كُلُّ الوجودِ على وجـودك شاهدُ
يا حيُّ يا قيومُ أنت المرتجى وإلى عُلاك عَلاَ الجبينُ الساجدُ
يا مَنْ له عَنتِ الوجوهُ بأسرها رَهَباً ، وكلُّ الكائناتِ تُوحِّدُ
أنت الإلهُ الواحدُ الحقُّ الذى كُلُّ القلوبِ له تُقِرُّ وتشهَدُ

لا يسعنا بعد هذا إلا أن نردد مع الكون كله ، من سمائه إلى أرضه ، ومن عرشه إلى فرشه ، قوله جل جلاله :

﴿ فَسُبحانَ الله حين تُمسُونَ وحين تُصْبحون * وله الحمدُ فى السماواتِ والأرضِ وعَشِياً وحين تُظهِرون * يخرجُ الحيَّ من الميتِ ويخرجُ الميتَ من الحيِّ ويحيى الأرضَ بعد مَوْتها وكذلك تُخرجُون * ومن آياته أن خلقكم من تُرابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون * ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لِتسكنوا إليها وجعلَ بينكم مَودَّةً ورحمةً إن فى ذلك لآياتٍ لِقومٍ يتفكرون * ومن آياته خَلْقُ السماواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم إنَ فى ذلك لآياتٍ للعَالَمين * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بالليْلِ والنَّهارِ وَابتِغاؤُكُم منْ فَضْلِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرقَ خوفاً وطمعاً وَيُنَزِّلُ من السماء ماءً فيحيى به الأرضَ بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقومٍ يعقلون * ومن آياته أن تقوم السماءُ والأرضُ بأمره ثم إذا دعاكم دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله مَنْ فى السماواتِ والأرضِ كُلٌّ له قانتون * وهو الذى يبدأ الخَلْقَ ثم يُعِيدُهُ وهو أهْونُ عليه وله المثلُ الأعلى فى السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيمُ ﴾
(الروم : ١٧ — ٢٧) .

عظمة الكون

جاء فى كتاب « العلم فى خدمة الدين » للباحث محمد عاطف البرقوقى ما نصه : « إذا كان الإنسان قد بهرته الأرض واتساعها ، ولم يكشف عن جميع نواحيها إلا بعد آلاف السنين ولم يصل إلى القمر إلا فى القرن العشرين (القمر الصناعى) وكان لوصوله دوى عظيم ملأ الأسماع من إذاعات العالم ، وأشبع الأبصار من صوره ... ومع ذلك فإن القمر الصناعى الأول لم يزن أكثر من ١٨٤ رطلاً ، ثم زاد القمر الثانى إلى ٥٠٨ رطلاً ، وبلغ فى سنة ١٩٦٠ عدة أطنان ، فأين هذا من وزن القمر الطبيعى ؟ بل ما كان يصح إطلاقا تسمية هذه القنبلة الصغيرة قمراً على الإطلاق ، وأين هذا من وزن الأرض ، وأين وزن الأرض بالنسبة للشمس التى يبلغ وزنها ٣٫٣٢٣٫٠٠٠ مرة من وزن الأرض ؟؟!! ومع ذلك فهنالك فى الكون بلايين النجوم ، وشمسنا ما هى إلا نجم من النجوم ، وإنما تبدو لنا شمسنا كبيرة لقربها من الأرض ، وأقول : قربها رغم أن الإنسان بعلمه وغروره لم يصل إلى جزء من مليون من المسافة بيننا وبين الشمس .

والعلم بعد كشفه للمنظار ، وكان أول منظار كشفه العالم الإيطالى (غاليليو) (١٥٦٤ إلى ١٦٤٢ م) وتطورت المناظير بعد ذلك فقويت وقربت ـــ وإن كان الإنسان يستطيع بالنظر إلى السماء ليلا بالعين المجردة أن يشاهد ٦٠٠٠ نجم ، فإنه بعد كشف المناظير استطاع أن يشاهد ٨٠ مليون نجم ، ثم بطرق علمية أخرى ، وبخاصة بالتصوير العلمى استطاع أن يدرك وجود ١٥٠ مليون نجم وما خفى كان أعظم !! والواقع أنه يوجد أضعاف هذا العدد من النجوم فى الكون ...

والنجوم والكواكب موزعة فى الفضاء مجاميع ، مثل الطيور تطير فى الفضاء أسرابا ، والأرض والقمر والمشترى والزهرة والشمس وغيرها تكون مجموعة هى المجموعة الشمسية . ويوجد عدد عظيم من المجموعات المتشابهة فى الكون .

فالأرض ليست إلا واحدة من المجموعة الشمسية . والمجموعة الشمسية ليست إلا واحدة من وحدات المجموعة المجرِّية . فالأرض على عظمتها واتساعها والتى بهرت الإنسان ـــ ما هى إلا جزء صغير من الكون العظيم .

ولكى أبين لحضراتكم اتساع الكون أقول : إن البعد بين الأرض والشمس يبلغ (٩٢٫٨٧٠٫٠٠٠) ميل ، وهى مسافة كبيرة كما ترون ، ولكن هذا البعد الكبير ليس إلا جزءاً صغيرا من أبعاد تفوقه كثيرا بين الأرض والنجوم البعيدة ...

ولكى أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ألجأ إلى طريقة أخرى هى طريقة سرعة الضوء .

كثيراً ما نلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلاً : إن المسافة بين القاهرة والإسكندرية تبلغ ثلاث ساعات بالقطار السريع ، وأن المسافة بين المنزل والمحطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلاً .

والسرعة التى سنتخذها وحدة فى تقدير أبعاد الفضاء ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطائرة النفاثة والصواريخ ، بل هى سرعة الضوء ، وهى أكبر سرعة معروفة فى العالم .

وسرعة الضوء هى أيضا سرعة اللاسلكى ، ولكى أوضح لحضراتكم عظم هذه السرعة أوجه النظر بمقارنتها بسرعة قطار سريع يقطع فى الساعة ٦٠ ميلاً أى بسرعة ميل واحد فى الدقيقة أو جزء من ستين جزءاً من الميل فى الثانية .

أما الضوء فلا يقطع كسراً من الميل فى الثانية بل يقطع ١٨٦٫٠٠٠ ميل فى الثانية ، أى ما يعادل ٣٠٠٫٠٠٠ كيلو متراً فى الثانية وهى سرعة عظيمة بلا شك .

وهناك حقيقة أخرى تبين عظمة هذه السرعة وهى أن المسافة بين الشمس والأرض وهى نحو ٩٢ مليون ميل كما ذكرنا وأشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة الضوء العظيمة فتقطع المسافة بينهما فى ٨ دقائق ، ١/٩ ثانية .

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه المسافة بطائرة نفاثة سرعتها ٦٠٠ ميل فى ساعة لاستغرق قطعها لا ٨ دقائق ولا ٨ ساعات ولا ٨ سنوات بل لاستغرق

ذلك نحو ١٧ سنة و ٦ أشهر وذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه بدون توقف ليل نهار وأين هى الطائرة التى تسير سنوات دون توقف حتى للتزود بالوقود ؟ .

فما أعظم سرعة الضوء .. وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية التى تدل على قدرة الله تعالى عز وجل .

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، فإن كانت أشعة الضوء تصل إلى الأرض من الشمس فى نحو ٨ دقائق فقد أثبت العلم أن هناك نجوماً تبعد عنا بملايين السنين .

وقد اتخذ العلماء السنة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية تلك المسافات الكبيرة بين النجوم .

ولتتصوروا عظمة هذا الكون أقول : إن رحلة حول الأرض يقوم بها الإنسان تستغرق أياماً أو ساعات أو أشهراً ... ولكن اللاسلكى يقطعها فى أقل من ١/٧ ثانية ـــ وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوؤه فى (١٥٫٠٠٠) سنة . ويعتقد العلماء أن هناك نجوماً يصل إلينا ضوؤها فى ألف مليون سنة ضوئية .

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما فى الوجود يسبح فى الفضاء كأسراب الحمام أو الطير التى تطير بسرعة فى الهواء ، ولكن النجوم تطير فى الفضاء بسرعة كونية هائلة ، وفيها ما يدور من أقمار حول الأرض ومن أقمار وكواكب حول الشمس وهناك ملايين من المجاميع أو المجرات وفيها ما فيها وكلها تسبح فى الفضاء فى نظام وتنسيق من صنع الله وإبداع الخالق العظيم ..

﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠)

والمتأمل فى هذا الكون العظيم ، تأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعاً وتبجيلاً وتقديرا لعظمته وجلاله .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨)

وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون . اهـ

قال الله تعالى :

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد : ٤)

آية كبرى من آيات الله فى المملكة النباتية .

إنه الجلال والجمال والكمال .

إن عالم النبات يمثل نوعاً كبيراً من أنواع الإعجاز الإلهى فى هذا العالم . فالذى أحيا الأرض الموات وأنبت فيها من كل شيء موزون ، ومن كل زوج بهيج ، قادر أن يبعث الأجساد بعد فنائها ، وتفرق أجزائها . وما الإنسان إلا عضو فى المملكة الحيوانية ، وبينها وبين المملكة النباتية عظيم شبه .

ولبيان هذه الحقائق نستمع إلى صوت العلم فى بيان رائع وحقائق ناطقة تلهج بالثناء والعرفان على الخالق البديع الذى أحسن كل شيء خلقه .

وقد جاء فى كتاب « دلائل الحق فى عظمة الخالق » للدكتور عزت محمد خيرى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام : ٩٥)

بعد ما ذكر المؤلف هذه الآية الكريمة قال : « تتنوع صور الحياة وتتشكل ألوانها ، وتتعدد أصنافها ، وتتكشف خواصها ، ويدأب العلماء على تقصى أسرارها ، والتعرف على أحوالها ، ومتابعة أطوارها ، ولكن بقى للحياة سرها الأعظم ، وهو سر الوجود .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر : ٢٨) .

وإن كل ما نعلمه عن الحياة فى مختلف صورها ؛ يتضمن الكثير من التفاعلات الكيميائية ، منها البسيط ومنها المعقد ، منها المعلوم ومنها ما زال غير

معلوم ـــ وإن كان ملموسا محسوسا ـــ ولعل من أبرز ما يميز الكائنات الحية على الجماد أنها ـــ نباتا كانت أو حيوانا أو إنسانا ـــ قد اختصت بالقدرة على النمو والتكاثر ، وإن نتاج كل نوع منها له من دلائل التماثل ما يجعل من اليسير نسبته إلى نفس السلالة من الكائنات الحية وتتعدد السلالات وتختلف صفاتها وقد تتشابه فيما بينها في قليل أو كثير وإن عمليات النمو والتكاثر تتضمن تفاعلات كيمائية ، وأهمها تلك التى تحدث أثناء تكون الأجنة واكتمال نموها .

وإن نمو كائن جديد يمكن أن يحدث خلال جزء صغير من طور الحياة فى الحيوان ، أو قد يستمر نموه طوال الحياة .

واستشهد المؤلف بقوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (النساء : ١)

وللنبات والحيوان بصفة عامة القدرة على استيعاب بعض المواد كالغذاء والماء وإدخالها فى تفاعلات كيمائية يصاحبها عادة انطلاق للطاقة وامتصاص لبعض النواتج ، وتخلص من البعض الآخر ، وتسمى عملية استفادة الكائن بالغذاء الذى يأخذه بعملية الأيض أو التمثيل الغذائى .

ومن خصائص الكائنات أنها تستجيب للأجواء المحيطة بها وتتكيف بها وتتعامل مع بعضها أو كلها ، فقد ينمو النبات فى اتجاه يأتى منه شعاع من ضوء أو طاقة ، كما أن من الحيوان ما تقوده حاسة الشم فيسير وفقا لمدى قوة تأثير رائحة غذاء يفضله ويميزه على حواسه ،وما توجهه إليه غرائزه تبعا لذلك .

ولعل المشكلة العظمى التى ما زالت تواجه العلم والعلماء ، وتستحث البحث والفحص والدرس ، هى تعريف (الكائن الحى) تعريفا دقيقا ـــ وما بالنا بالنسبة لتركيب أنسجته وخلاياه وتوصيف العمليات البيولوجية والكيميائية والحسية والعصبية فيه ؛ ولعل هذه الحقيقة يمكن فهمها وإدراك ما بعدها إذا علمنا أن الجدل العلمى ظل فترة طويلة يناقش ويمعن في الشد والجذب حول أبسط أنواع

المادة — فيروسات النبات — التى يظن أن فيها حياة ، فقد تبين أن لهذه الفيروسات القدرة على إحداث صورة بسيطة للتكاثر ألا وهى الانقسام إلى كائنات متماثلة مع الفيروس الأصلى تماثلا تاما .

فمثلا فى حالة فيروس ورق الطماطم وجد أن الفيروس الواحد يستطيع أن يحول بعض خلايا ورقة الطماطم إلى عدة كائنات هى أساسا وحدات متكاثرة منه ، إلا أنه قد ثبت أن هذه هى صورة الحياة الوحيدة التى توجد فى الفيروسات النباتية بصفة عامة وتظهر كأنما هى إحدى نماذج تحول كائن غير حى إلى كائن حى ، ولكن هذه الكائنات لا تتمتع بأى صفة أخرى من صفات الحياة ، فهى لا تنمو ، ولا تستوعب غذاء ولا تمثل الغذاء ، كما أنها لا تستجيب للمؤثرات الخارجية بالطريقة التى تحدث فى الكائنات الكبيرة النامية .

ويبقى بعد ذلك سؤال هام ما زال يحير العلماء . هل تعتبر هذه الفيروسات كائنات حية ؟ إذا كان الكائن الحى هو ذلك الذى يقدر على القيام بعمليات التمثيل الغذائى (الأيض) والتكاثر والنمو فإن الفيروسات ما هى إلا جزيئات كيميائية بروتينية معقدة التركيب يبلغ وزنها الجزئى ما يقرب من بضع وعشرة ملايين وحدة ، وأن لها من التركيب الجزئى ما يسمح لها بحفر بعض العمليات الكيميائية فى الأوساط المناسبة تستطيع بموجبها تكوين جزيئات مماثلة لها تماما . وهذا هو — حتى الآن التفسير المتعارف عليه بين جمهور العلماء والباحثين . وبالتالى فلا يمكن أن نسمى ما يتوصل إليه بعض العلماء مهما جل شأن ما يتوصلون إليه من أمثال هذه التحولات التى تظهر إحدى صور غير مكتملة للحياة على أنه خلق لحياة أو استحداث لها .

هذه بعض فيروسات النبات .. أما فيروسات الحيوان وهى التى تنمو على أنسجة الحيوان ، فقد تبين أن لها تركيبا محددا وهى أكبر كثيرا من فيروسات النبات ، إذ يبلغ وزنها الجزئى بضعا وألف مليون وحدة ، كما إنها تمثل الحياة تمثيلا متكاملا ، من أهم خصائصه النمو والتكاثر . وقد وجد أن الكثير من الكائنات الدقيقة كالخمائر والبكتريا آحادية الخلية لها هذه الخواص . وقد تكون الخلية

محدودة الحجم بحيث لا ترى إلا بالميكروسكوب (المجهر) . وهذه يبلغ قطر كل منها حوالى جزء من عشرة آلاف جزء من السنتيمتر ، أو قد تكون من الكبر بحيث يبلغ قطرها حوالى المليمتر أو أكثر .

وتتكون الخلية من تركيب دقيق التنظيم ، يتألف من جدار الخلية وهو رقيق جدا ، يبلغ سمكه مئات من وحدات الإنجستروم (الإنجستروم = جزء من مائة مليون من السنتيمتر) وفى داخل هذا الجدار يوجد قوام شبه سائل يتضمن السيتوبلازم وغيره من المركبات . وتتكون بعض الكائنات الأخرى من تجمعات كبيرة من الخلايا قد تتعدد أنواعها فى الكائن الواحد ، فمثلا تتكون العضلات ، وجدران الأوعية الدموية والأنسجة الضامة والأعصاب والجلد وغيرها من أجزاء جسم الإنسان من خلايا مترابطة مع بعضها البعض بنظام رتيب وتركيب محدد .

وبالإضافة لهذه الخلايا توجد خلايا أخرى تسبح فى سوائل الجسم وتنتقل من جزء إلى آخر .

ومن أهم هذه الخلايا كرات الدم الحمراء ، وهى على هيئة أقراص مسطحة يبلغ قطر كل منها حوالى ٧٠ ألف وحدة إنجستروم وسمكه حوالى ١٠ آلاف وحدة . وعدد الكرات الحمراء كبير جدا يبلغ فى الشخص البالغ ما يقرب من خمسة ملايين فى المليمتر المكعب من الدم . فإذا ما علمنا أن جسم الإنسان يحتوى على ما يقرب من ٥ لترات من الدم ، فإن عدد الكرات الحمراء يبلغ ٢٠٠٠٠ مليار فى الدم . ويحتوى جسم الإنسان كذلك على عديد من الخلايا الأخرى بعضها يصل قطره إلى حوالى ١٠ آلاف وحدة انجستروم كخلايا الأعصاب ، وهذه تمتد ما يقرب من ١٠٠ سنتيمتر من الأطراف إلى قمة العمود الفقرى . ويبلغ عدد الخلايا فى الجسم حوالى ١٠ بليون خلية .

هذا ولا يتكون الجسم البشرى من الخلايا فقط ، ولكنه يحتوى كذلك على العظام ، وهذه تعتبر مخلفات للخلايا الصانعة للعظام .

وتتكون العظام من مركبات غير عضوية — وهى فوسفات الكالسيوم الهيدروكسيدية وكربونات الكالسيوم — ومركب عضوى يسمى الكولاجين ، وهو مادة بروتينية .

وبالإضافة لذلك يحتوى الجسم على السوائل وهى الدم والنخاع وسوائل أخرى تفرزها بعض الأعضاء مثل اللعاب والعصارات الهضمية . وتشتمل هذه السوائل على العديد من المواد الكيميائية ويتحدد تركيب الخلايا بتركيب خلايا الجدران بصفة خاصة . ففى النبات تتكون الخلايا أساسا من السليلوز السكرى ، وفى الحيوان (والإنسان) يمثل البروتين الإطار الأساسي لتكوين الخلايا وجدرانها على حد سواء . فمثلا تحتوى كل من الخلايا الحمراء فى الدم على ٦٠٪ من الماء ، ٥٪ من مواد متنوعة ، مضافا إلى ذلك ٣٥ ٪ من الهيموجلوبين ـــ وهو مركب بروتينى يحتوى على الحديد وزنه الجزئى ٦٨ ألف وحدة ـــ ويتميز بخاصية التفاعل الانعكاسى مع الأكسجين ، وبالتالى تنظيم امتصاص الأكسجين وتفاعلاته فى الجسم . وبهذه الخاصية يمكن للدم أن يتحد مع مقادير كبيرة من الأكسجين فى الرئتين وينقل بالتالى الأكسجين إلى الأنسجة فيؤكسد المواد الغذائية ومكونات الجسم الأخرى محدثا الطاقة اللازمة لدفع الحياة وحفظها فى الجسد » . أهـ

هذا بعض من كل عن عظمة الخلق ، وقدرة الخالق الذى وهب الحياة للكائنات وحفظها عليهم ، وخلق من أنواعها وأصنافها وأشكالها بأمر كن فيكون .

وإن خلقه للبشر أرق أنواع المخلوقات دليل على إعجاز وقدرة ، ويتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ (الأنعام : ٣٨)

الخلية وحدة الحياة

وبعد هذا البيان يحدثنا المؤلف عن الخلية فيقول :

« سبحان الله الخالق المصور القادر المانع الرزاق الوهاب . يتجلى فى خلقه ويفيض فى نعمائه ، ويربط بين مخلوقاته ، ويوثق الصلة بين موجوداته . وإذا تأملنا فى خلق الكائنات الحية ـــ نباتا أو حيوانا أو إنسانا ـــ لمسنا وحدة الخلق ،

ووجدناها جميعا ترتبط ببعضها البعض ، وبالكون الذى تعيش فيه ، من حيث خصائص التكوين ومقومات الحياة .

فالشمس والنجوم تنشر الضوء وتشع الطاقة . والسماء تنزل الماء ، فيأخذ النبات من الماء والضوء والطاقة ما يونعه ، ويستخدم منها فى عمليات التمثيل الغذائى والأيض النباتى أو الإتلافى ما يثريه بالمواد الغذائية ويخلصه من المواد الضارة ، والحيوان يأخذ من النبات غذاء ، والإنسان يأخذ من النبات والحيوان غذاء وكساء ومنافع أخرى عدة . يقول تعالى :

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٨ ، ١٩)

وإذا تأملنا مرة أخرى فى الكائنات الحية وجدنا أنها جميعا يتكون كل منها من وحدة ــ أو وحدات ــ بنائية تسمى الخلية . ورغماً عن أنه قد تم التعرف حتى الآن على ما يقرب من ٤٠٠ ألف فصيلة نبات ، وضعف هذا العدد من فصائل الحيوان ، فإن خلايا جميع هذه الأنواع المتعددة لها الكثير من الصفات المتشابهة .

ويمكن التعبير عن تركيب مختلف أنواع الخلايا بما يسمى بالتركيب النموذجى ، إذ تتكون كل خلية من غشاء وسيتوبلازم ونواة . وكان يطلق اسم البروتوبلازم على كل المادة الحية فى الخلية . إلا أنه بعد التعرف على العديد من المكونات أصبح لهذا الاسم أهمية تاريخية فقط . ويحتوى السيتوبلازم على دقائق عضوية مختلفة من بينها ما يسمى « الميتوكوندريا » و « الليزوزومات » و « الميكروزومات والسنتروزومات » كما يحتوى السيتوبلازم على قنوات دقيقة جدا تسمى قنوات الأندوبلازم ، وكذلك جسيمات جولجى .

والميتوكوندريا هى الدقائق العضوية التى تحدث عندها تفاعلات التأكسد فى الخلية ، أما الليزوزومات فهى مواقع عمليات التميؤ « التحلل المائى » بينما تكون البروتينات فى الميكروزومات ، وتساعد السنتروزومات عملية انقسام الخلية . وقد تبين من نتائج البحوث والدراسات المعملية أن القنوات الموجودة فى الخلية هى

بمثابة أغشية داخلية تربط بين غشاء الخلية وغشاء نواة الخلية بينما تعمل جسيمات جولجى على تركيب غشاء الخلية . ويملأ الخلية فيما عدا الكائنات العضوية المشار إليها مواد غير حية مثل البروتينات والسكريات والليبيدات والأصباغ الملونة . أما نواة الخلية فهى بيضاوية الشكل وتشغل حيزا صغيرا متكثفا وهى مسئولة عن توريث خصائص الخلية الأم إلى الخلية المتوالدة عنها .

وتحتوى النواة على نوية صغيرة وحبيبات صغيرة ، يطلق عليها اسم كروماتينات . ويعتقد أن النوية تسهم فى عملية التحكم فى تكون البروتينات .

التكوين الكيمائى لخلية نموذجية :

يتكون غشاء الخلية أساسا من مواد متراكبة من البروتينات والليبيدات ، تسمى « الليبوبروتين » أما السيتوبلازم فهو وسط شفاف يتراوح فى قوامه بين سائل رقيق إلى هلام جامد . ويحتوى جسيمات ميكرئية ، والميتوكوندريا غنية بالبروتين وبالليبيدات الفسفورية ، بينما تحتوى جسيمات جولجى على ليبيدات أصلا . ويتألف السكر الموجود فى الخلية من سكر الجليكوجين فى أغلب الخلايا . ويتكون البروتين الذى تحتويه الخلايا من فصيلة البروتينات النووية المعروفة « بالريبوز » ويتكون البروتوبلازم بصفة عامة من ٧٥ ٪ من وزنه أو أكثر ماء كما يحتوى على الكلوريد والفوسفات والكبريتات ، وأيونات عناصر البوتاسيوم والصوديوم والمغنسيوم والكالسيوم ، وكذلك مركبات الكبريت وآثار بسيطة من النحاس والحديد والمنجنيز واليود وبالإضافة إلى ذلك توجد فيه البروتينات والسكريات والليبيدات ويؤدى وجود مقادير كبيرة نسبيا من البروتين فى الخلية إلى اتخاذها صفات غروانية .

هذا كله يأتلف ويتجمع وينتظم فى الخلية وحدة كل كائن حى ، وما الخلية إلا جسيم صغير لا يرى إلا بالميكروسكوب . حقا إنها من صنع الله القادر الخلاق . وما بالنا بطريقة تجمع هذه الخلايا وترابطها وانتظامها وتكاملها لتكوين الكائن الحى بمختلف فصائله وأصنافه وأنواعه . صدق الله العظيم فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج : ٥ ، ٦)

ومما سبق يتبين لنا أن كثيرا من المركبات التى تدخل فى تكوين الخلية هى مواد كيميائية عادية يمكن تحضيرها بيسر فى المعمل وحفظها على رفوفه ، ولكن العجب أنها عندما تنتظم بأمر خالقها وتمتص ما يكفيها من الطاقة تدب فيها الحياة .

إنها من لدن الخالق الواحد الأحد القيوم العزيز القدير .

وتتميز جميع الخلايا الحية بخصائص مشتركة — أيا كان مصدر هذه الخلايا — تميزها عن المادة غير الحية . من أهم هذه الخصائص أنها تقوم بنوع عمليات الأيض ، أى أنها تأخذ المواد الخام وتجرى عليها من التغيرات ما يلزم لتكوين مركبات الخلية . وكذلك ما تحتاجه من الطاقة ، ثم تتخلص عن طريق عملية « إخراج » مناسبة من النفايات التى لا تحتاجها ، وهى عمليات كيميائية وحيوية معقدة وتصاحب عمليات الأيض عمليات تنفس مناسبة وتتميز الخلايا الحية كذلك بخاصتين أساسيتين هما « النمو » و « التكاثر » وعن طريقهما يتم حفظ النوع ، كما تعتبران صنوان للحياة فى الخلية .

ومن الصفات الهامة للخلية الحية أنها تتجاوب مع الظروف البيئية المحيطة بها إما بالتنافر والرفض ، أو بالملاءمة ، وهذا أيضا من مظاهر الحياة فى الخلايا وحتى النباتات التى تنمو تحت ظروف ثابتة خلافا للحيوان الذى ينتقل من مكان إلى آخر — فإنها تلائم نفسها من البيئة بما يحفظ عليها الحياة . فنجد أن بعضها يمد أغصانه لتصل الماء ليعوض ما ينقصه عن طريق الجذور ، ومنها ما تتحرك لمواجهة مشرق الشمس لتمتص ما تحتاج من طاقة ، وعلى ذلك فيمكن القول إن الخلايا

تمارس الحركة . وفى حالات قليلة قد تحتفظ بعض الخلايا بصفة مؤقتة ببعض الصفات الحية وليس بكلها ، فمثلا يمكن تجميد بعض الفيروسات وبلورتها ، وبالتالى فإنها تبدو كما لو كانت غير حية ، ولكنها إذا ما غمرت فى وسط مناسب فإنها تنشط فتنمو وتتكاثر لتوها ، وتنشأ الفروق الخاصة بين خلية وأخرى من نوع آخر ، من اختلاف المركبات المكونة لها من حيث المقادير النسبية التى توجد عليها ، وسرعة تفاعلها مع بعضها ، والترتيب الهندسي لها ومواضعها فى الخلية ، فمثلا تحتوى الكرات الحمراء فى الإنسان على الهيموجلوبين الذى يشتمل على الحديد ... والهيموجلوبين هو الذى يساعد على نقل الاكسجين إلى الخلايا الأخرى فى الجسم . وتحتوى الخلايا السطحية للجلد على بروتينات غير قابلة للذوبان . ومن ثم فإنها تصلح كغشاء يضم الجسد ويزوده بالحماية ضد الضربات أو الصدمات وكذلك من أضرار التعرض للمواد الكيميائية . وتتشكل خلايا الأعصاب بما يلائمها لنقل النبضات والإشارات الكهرومغنطيسية . بينما تحتوى خلايا العضلات على مركبات تستطيع أن تتفاعل بحيث تحدث انكماشا فى الخيوط النسيجية .

موت الخلايا

إذا ماتت مادة حية ، فمعنى ذلك أنها توقفت عن القيام بأنشطتها التى تميز الحياة فيها ، ويدل ذلك على أن خلاياها فقدت صفاتها الذاتية من حيث التكوين والوظيفة ، إما لتغير جذرى فى أعدادها أو صفاتها أو فى مكوناتها البروتوبلازمية . وقد يكون هذا التحول نتيجة لدورة الحياة فى الخلية أو لتغير فى الظروف المحيطة بها أو لكلا العاملين ، أو قد يكون بسبب عوامل أخرى مما يختلف حسب الأحوال . فمثلا يحدث للإنسان أثناء حياته العادية أن تموت بعض خلاياه متحولة إلى مواد نافعة غير حية . فتتحول بعض الخلايا السطحية فى الجلد إلى أجزاء ميتة من الجلد أو الأظافر .

هذا وقد لوحظ حدوث تغيرات فى خلايا معينة فى جسم الإنسان نتيجة

لتقدم السن . فمثلا لوحظ فى بعض الطاعنين فى السن أن خلايا الأعصاب — وهى أطول خلايا الجسم عمرا — تحتوى على أعداد متزايدة من حبيبات الليبيدات نتيجة لتغيرات كيميائية مما يجعلها تفقد جزءا من انتظام توزيعها مما يؤدى إلى تغيرات عصبية مختلفة فى مثل هذه الأحوال . ويحدث لبعض خلايا أنسجة المفاصل أن يقل محتواها من بروتين الألبومين (زلال البيض) ويصاحب ذلك ترسب الكالسيوم مما يجعلها تفقد مرونتها كما يحدث لبعض خلايا العظام أن تموت فتترك العظام هشة . أما خلايا الغدد فتختلف درجات تغيرها مع السن .

ومن أظهر التغيرات أن غدد الادرينال ترسب الكولاجين نتيجة لتلاشى بعض خلاياها . ويقل العد الليمفوسيتى للدم بمرور السن ، كما تؤدى الزيادة فى رواسب الكولسترول داخل جدران الأوعية الدموية التى تصلها مما يؤدى إلى زيادة ضغط الدم وبالتالى إلى زيادة التعرض للجلطة الدموية ، ويحدث ذلك نتيجة لاضمحلال بعض الخلايا فى هذه الأوعية .

وبعد فهذا بيان عن عظمة خالق الوجود تتجلى فى وحدة الحياة الحية والله هو واهبها ومشكلها ومنظمها فى شتى المخلوقات سبحانه القادر العزيز المتعال .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (الملك : ٢٣)

* * *

وبعد ، فمعذرة للقارىء إن كنا قد أطلنا فى إثبات هذه الحقائق العلمية لكنها توصلنا إلى حقيقة لا مراء فيها ، وإلى نتيجة لا يعتريها شك ولا يشوبها ريب . إن هذه الحقيقة تؤكد أن الإنسان والنبات كل منهما يمثل حقيقة لا تختلف ، ويشترك كل منهما فى صفات لا تفترق فإذا كان النبات يحصد ثم يبذر فينبت مرة أخرى ، فأى مانع يمنع من إعادة الإنسان بعد فنائه ، وأى عقبة تحول دون ذلك ، إذا كنا قد علمنا أن المبدىء والمعيد هو الله الذى أثبت هذه الحقيقة فى قوله ﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨)

نعم لقد أطلنا فى ذكر الحقائق العلمية التى أثبتت لنا بما لا يدع مجالا للشك وجوه الشبه القوية بين النبات والإنسان مما يؤكد لنا عظمة القرآن فى تعبيره عن خلق الإنسان بالإنبات . فلم يقل تعالى والله أنشأكم من الأرض إنشاءً ، إنما قال ﴿ والله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ليضع أيدينا على حقيقة كبرى تنادينا بأعلى صوتها وتقول : لم تنكرون البعث بعد الموت ؟ وما وجه إنكار ذلك وأمامكم البعث يتحقق كل يوم وكل ساعة .

ألستم يا بنى آدم كنبات هذه الأرض ، ألست يا ابن آدم تضع الحبة فى ظلمات الأرض فتنمو ، كما تضع النطفة فى ظلمات الرحم فتنتقل من طور إلى طور من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى جنين إلى طفل يأخذ طريقه فى الحياة ؟

﴿ مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لله وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (نوح : ١٣ ، ١٤)

ألست يا ابن آدم تحصد النبات إذا أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه تحتصده بمناجلك ؟

أليس ملك الموت يحصدك عندما يبلغ الكتاب أجله ؟

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ (الأنعام : ٦١ ، ٦٢)

ألست يا ابن آدم تذهب بالنبات بعد استحصاده محمولا على ظهور الإبل والدواب إلى الأجران ؟

ألست يُذهب بك بعد موتك محمولا على خشبة حدباء إلى أجران المقابر ؟

ألست يا ابن آدم تأتى بالنورج لتدوس على النبات فتدوسه ؟ .

ألست يأتيك الدود فيدرسك فى أجران المقابر ؟

ثم تعال بعد ذلك . ألست تأخذ الحب الحصيد فتبذره فى الأرض فيخرج نباتا مرة أخرى ؟

أليست هذه حقيقة ملموسة لا ينكرها من كان له أدنى تفكير ؟

ألم ينبت النبات بعد أن درسته النوارج ؟

فلماذا تستبعد بعثك بعد موتك ، وأنت تسير مع النبات طورا بعد طور ، وحالة بعد حالة ، ومرحلة عقيب مرحلة ؟

إنه لا ينكر هذه الحقيقة إلا من سلب عقله فأصبح لا يميز بين الليل والنهار ، ولا يجادل فى هذه القضية إلا من وضع قلبه فى أكنة وفى آذانه وقر وعلى بصره غشاوة .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ (الكهف ١٠٠ ، ١٠١)

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (فصلت : ٥) سبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق :

﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾
(نوح : ١٧ ، ١٨)

يامن قلت وقولك الصدق ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تخرجُونَ *

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم : ١٧ — ٢٧)

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع

بين يدى يوم القيامة

- النفخ فى الصور .
- حديث عن الصور .
- عجب الذنب .
- ما هو الحشر ؟
- أول ما تنشق عنه الأرض .
- أرض المحشر .

النفخ في الصور

ماذا بعد الكلام عن البعث والأدلة الناطقة بوقوعه ؟ .

يتحدث العلماء المحققون عن كيفيته ، فيقولون : إن عدد النفخات فى الصور مختلف فيها .

ذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاث : نفخة فزع وهى السابقة على غيرها ، ونفخة صعق أى إماتة ، ونفخة إحياء .

فعند نفخة الفزع يفزع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم ينفخ نفخة الصعق أى الإماتة فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله . ثم بعد ذلك بمدة طويلة ينفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام إلى ربهم ينظرون .

وذهب قسم من العلماء إلى أن هناك نفختين : نفخة إماتة ، ونفخة إحياء .

أما الذين استثناهم الله تعالى من الفزع والصعق حين يُنفخ فى الصور ، فقد اختلف فيهم ، فقيل : هم جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وملك الموت ـــ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام .

وقيل : هم الأنبياء ، وإلى ذلك جنح البيهقى كما فى الفتح .

وقيل : هم الشهداء ، أى ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقيل : هم الحور العين ، وخزنة الجنة ، وخزنة النار . وعلى كل من الأقوال فالواجب اعتقاد أن هناك من استثناهم الله تعالى .

أما المدة فيما بين النفختين : الإماتة والإحياء ، وكيفية إحياء الموتى ، فقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله

ﷺ « ما بين النفختين أربعون » .

قالوا لأبى هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيت » أى : لا أجزم بذلك . قالوا : أربعين شهراً ؟ قال : « أبيت » أى لا أجزم بأنها أربعون شهراً . قالوا : أربعين سنة ؟ قال : « أبيت » .

ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل . قال ﷺ « وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » .

ففى هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة بتعيين الأربعين ما هى . ولكن جاء فى رواية لأبى داود أنها أربعون سنة .

حديث عن الصور

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين : هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى ، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام وتختلف فى منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها .

وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن فى ضيق أعلاه وسعة أسفله . فهو ليس كروى الشكل كالأرض ونحوها ، بل قرنى الشكل .

قال الإمام الترمذى فى سننه : باب ما جاء فى شأن الصور ، ثم أسند إلى عبد الله بن عمرو قال : « جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال ما الصور يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « قرن ينفخ فيه » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ــ القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ . فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ﷺ فقالوا : كيف نفعل أو كيف نقول ؟ فقال ﷺ : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وأما صاحب القرن ، أى الصور الذى ينفخ فيه ، فهو إسرافيل عليه السلام ، كما جاء مصرحاً به فى جملة الأحاديث .

قال فى الفتح : اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام . ونقل فيه الحليمى الإجماع .

ووقع التصريح به من حديث وهب بن منبه ، وفى حديث أبى سعيد عند البيهقى ، وفى حديث أبى هريرة عند ابن مردويه ، وكذا فى حديث الصور الطويل الذى أخرجه عبد بن حميد ، والطبرى وأبو يعلى فى الكبير ، والطبرانى فى المطولات ، وعلى بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية ، والبيهقى فى البعث من حديث أبى هريرة .

فبعد ما ينبت الله تعالى هذه الأجسام ، ويجعلها قابلة للروح ، يأمر الملك أن ينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فتتصل كل روح بجسمها ولا تخطئه . فما أشبه الإعادة بالبداءة .

قال تعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) .

وقال تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ (طه : ٥٥) .

وقال تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً** ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨)

هذا هو البعث وكيفيته .

عجب الذنب

روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن فى الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً ، منه يركب الخلق يوم القيامة . قالوا : أى عظم هو يا رسول الله ؟ قال : عجب الذنب » .

وفى رواية مالك وأبى داود والنسائى ، « كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب » .

وعجب الذنب هو كما قال الإمام النووى بفتح العين وسكون الجيم : العظم اللطيف الذى هو أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له : عجم بالميم ، وهو أول ما يخلق من الأرض فى ابن آدم ، وهو الذى يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، كما أوضحه النووى رضى الله عنه .

وفى هذا الحديث الشريف بيان لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها ، وبعثها من قبورها ، وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماءً على ذلك الجزء الباقى من ابن آدم وهو عجب الذنب . ويجمع الله تعالى ما تفرق من تراب ذلك الجسم ، وتربو أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبس الروح فيها . ثم إن الله تعالى يأمر الملك فينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فهناك تتطاير كل روح إلى جسمها الذى كانت تعمره ، فإذا هم قيام ينظرون .

قال الله تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرضِ نباتاً * ثم يُعيدكم فيها ويخرجكم إخْرَاجاً** ﴾ (نوح : ١٧ ، ١٨) .

وقال الله تعالى : ﴿ **إنَّا نحن نحيى ونميتُ وإلينا المصيرُ * يوم تَشقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً ذلك حَشْرٌ علينا يسيرٌ** ﴾ (ق : ٤٣ ، ٤٤) .

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدفين فى خبايا الأرض ، وبث الروح فيه .

ومن هنا ترى أن الله تعالى يشبه أمر البعث والإعادة بإنباته الزروع والأشجار ، وإحيائه الأرض بالمطر بعد موتها .

قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يدى رحمته حتى إذَا أقلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لبلد ميتٍ فأنزلنا به الماءَ فأخرجنا به من كُلِّ الثمراتِ كذلك نخرجُ الموتى لعلكم تذكّرون** ﴾ (الأعراف : ٥٧) .

وقال تعالى : ﴿ **وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كُلِّ زوجٍ بهيج * ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيى الموتى وأنه على**

كُلِّ شىء قديرٌ * وأن الساعةَ آتية لا ريبَ فيها وأن الله يبعثُ مَنْ فى القُبور ﴾
(الحج : ٥ — ٧)

فهو سبحانه كما ينشىء تلك الشجرة العظيمة ، والزروع الخصيبة بإنزال المطر على تلك النواة والحبة الدفينة فى بطن الأرض ، كذلك يخرج الله تعالى هذه الأجسام البشرية من تلك الذرارى والأجزاء الدفينة فى بطن الأرض بإنزال ماء عليها ، ثم بث الروح فيها بسبب نفخة الصور .

وهذا الماء الذى يحيى به الله تعالى الأجسام البشرية بعد موتها ، هو ماء الحياة المشتمل على جميع العناصر الوجودية الأربعة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَ الذين كفروا أن السماواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً فَفَتَقناهُمَا وجعلنا من الماءِ كُلَّ شىءٍ حَىّ أفلا يُؤمنون** ﴾ . (الأنبياء : ٣٠)

فكانت السماوات والأرض رتقاً أى جملة مجملة فى الماء ففتقهما سبحانه أى فصل وجودهما أولاً إلى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه . فمن بخار الماء اللطيف خلق السماوات ، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام ، ثم فصلهما إلى سبع سماوات وسبع أرضين ، ثم أمطر السماء وأنبت الأرض .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كُلَّ شىءٍ حَىّ** ﴾ أى الماء الذى كانت السماوات والأرض رتقا فيه ، جعلنا من ذلك الماء كل شىء حى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ .

ومما يدل على ذلك ، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد فى الآية الكريمة : الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأخبرنى عن كل شىء . فقال ﷺ « يا أبا هريرة : كل شىء خلق من ماء » .

ومن ذلك الماء أيضا ما جاء فى الصحيحين من حديث الشفاعة : أن العصاة يخرجون من جهنم يلقون فى نهر الحياة فينبتون نبات الحبة فى حميل السيل الحديث .

أما الحشر فإنه فى لغة العرب معناه الجمع .

يقول العلماء : المراد بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض .

قال تعالى : ﴿ **ويوم نُسيِّرُ الجبالَ وترى الأرضَ بارزةً وحشرناهم فلم نُغادِرْ منهم أحداً** ﴾ (الكهف : ٤٧) أى فلم نترك منهم واحدا . وذلك أن الله تعالى فى هذا اليوم يسير الجبال بعد ما كانت ثابتة راسخة فى أماكنها ، فإذا بها طرأت عليها حالة أنها سُيرت فكانت سراباً . وهذه الحالة هى من جملة الأحوال التى ذكرها الله تعالى عن الجبال يوم القيامة .

قال العلامة الفخر الرازى رحمه الله تعالى : إن الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ـــ أى يوم القيامة ـــ ويمكن الجمع بينها بأن نقول : أول أحوالها الاندكاك ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحدةً** ﴾ (الحاقة : ١٤) أى مسحت الأرض وجبالها ودق بعضها ببعض .

والحالة الثانية : أنها تصير كالعهن المنفوش ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ** ﴾ (القارعة : ٥) أى تصير بعد أن كانت صلباً تصير كالصوف المندوف .

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء المنبث فى الهواء . قال تعالى :

﴿ **وَبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا فكانت هباءً مُنبثاً** ﴾ (الواقعة : ٥ ، ٦) أى فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس أى المبلول .

والحالة الرابعة : أن تنسفها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها فى الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الجبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها ربى نَسْفاً** ﴾ (طه : ١٠٥) .

والحالة الخامسة : أن تصير سراباً ، أى لا شيء كما يُرى السراب من بعيد ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَسُيِّرَتْ الجبالُ فكانتِ سَرَاباً** ﴾ . (النبأ : ٢٠)

وقال تعالى : ﴿ **واستمع يوم يُنَادِ المنادِ من مكانٍ قريب * يوم يَسمعونَ الصيحةَ بالحقِّ ذلك يومُ الخروج * إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصيرُ * يوم**

تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سِرَاعاً ذلك حَشْرٌ علينا يَسِيرٌ ﴾ (ق : ٤١ — ٤٤) .

وهذا المنادى هو إسرافيل عليه السلام . فإنه ينادى بالأموات عن أمر من الله تعالى من مكان قريب من ذاتهم وجميع ذواتهم قائلاً : يا أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة : إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ **فتولَّ عنهم يوم يَدْعُ الداعِ إلى شيء نُكر * خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث[1] كأنهم جراد منتشر * مُهْطِعين[2] إلى الداعِ يقول الكافرون هذا يوم عَسِر** ﴾ (القمر : ٦ — ٨) .

ثم قال سبحانه : ﴿ **يوم يسمعون الصيحةَ بالحقِّ ذلكَ يَوْمُ الخروج** ﴾ (ق : ٤٢) وتلك هى النفخة الثانية التى يكون بها الإحياء (ذلك يوم الخروج) من القبور (إنا نحن نحيى ونميت) أى لا شريك لنا فى ذلك (وإلينا المصير) مصير العالم ورجوع الخلائق إلينا لأجل الحساب والجزاء ﴿ **يوم تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم سراعاً ذلك حشرٌ علينا يسيرٌ** ﴾ (ق : ٤٤) .

والمعنى أنهم يخرجون من القبور مسرعين إلى المحشر .

أول من تنشق عنه الأرض

وأول من تنشق عنه الأرض هو السيد الأكرم : سيدنا محمد ﷺ ، الذى خُصَّ بالأوليات فى جميع العوالم .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع » .

---

(١) أى القبور

(٢) مسرعين

وإنما ذكر الرسول ﷺ سيادته يوم القيامة مع أنه هو سيد ولد آدم فى كل العوالم ، ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس ، فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عياناً بلا إنكار منكر . فلا ينافى أن سيادته ﷺ ثابتة فى الدنيا وفى جميع العوالم . وأطلق فى الوصف بذلك ، أى بسيادته ﷺ ولد آدم لإفادة العموم لأولى العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين . وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز ، إذ هو ﷺ أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعاً ، كما أوضح ذلك المحققون من العلماء .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر . وما من نبى يومئذ : آدم فمن سواه إلا تحت لوائى . وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر . وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » أى هو يقول ذلك ﷺ شكرا لا فخراً ، بل شكراً لله تعالى ، وتحدثاً بنعمته ، وإعلاماً للأمة أنه مما يجب تبليغه ليعتقدوا فضله على من سواه ﷺ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

أرض المحشر

أما عن أرض المحشر ، فيحدثنا حجة الإسلام الغزالى فى كتابه العظيم « إحياء علوم الدين » فيقول :

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور : حفاة عراة غرلاً ، إلى أرض المحشر : أرض بيضاء قاع صفصف ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه ، يساقون إليه زمرا . فسبحان من جمع الخلائق على

اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض ، إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة . والراجفة : هى النفخة الأولى . والرادفة : هى النفخة الثانية . وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة .

قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ، ليس فيها معلم لأحد » .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع ، والنقى : هو النقى عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر وتفاوت يرد البصر .

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا ، بل لا تساويها إلا فى الرسم قال تعالى : ﴿ **يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ** ﴾ (إبراهيم : ٤٨) .

قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها ، وتمد من الأديم العكاظى أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يسفك عليها دم ، ولا يعمل عليها خطيئة . وللسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها .

فانظر يا مسكين فى هول ذلك اليوم وشدته ، فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها .

فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم ، وانشقت الأرض مع غلظتها وشدتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها .

فياهول صوت انشقاقها فى سمعك ، وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدتها ، ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة ، فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث ، وهم حفاة عراة مشاة .

وقال رسول الله ﷺ : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » .

قالت سودة زوج النبى ﷺ راوية الحديث : قلت : يا رسول الله واسوأتاه !!

ينظر بعضها إلى بعض ؟ فقال : شغل الناس عن ذلك بهم ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

فأعظمْ بيوم تنكشف فيه العورات ، ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم ، فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركباناً ، ومشاة ، وعلى وجوههم . فقال رجل يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » .

فى طبع الآدمى إنكار كل ما لم يأنس به . ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور المشى على غير رجل . والمشى بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك .

فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها .

فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عارياً ، مكشوفاً ، ذليلاً ، مدحوراً ، متحيراً ، مبهوتاً ، منتظراً لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة . وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة » .

* * *

ونزيد هذه المعانى التى ذكرها الإمام الغزالى عن أرض المحشر .

نزيدها وضوحاً بما ذكره الشيخ عبد الله سراج الدين فنقول وبالله التوفيق :

صدر الشيخ هذا الموضوع بقوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زَجْرةٌ واحدةٌ * فإذا هم بالسَّاهرةِ** ﴾ (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

والمعنى : فإنما هى الرادفة التى هى النفخة الثانية ، التى بها إحياء الأموات (زجرة واحدة) يجمعون بها جميعاً ولا يتخلف منهم أحد .

(فإذا هم بالساهرة) أى صاروا كلهم على وجه أرض المحشر . وإنما وصفها بالساهرة لسعة أطرافها وتباعد أكنافها ، وشدة مخاوفها ومتالفها . فلذا كان شأن من حل فيها أنه لا ينام لشدة الفزع والخوف إلا من آمنه الله ورحمه .

روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن سهل بن سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ، ليس فيها علم لأحد » .

وفى رواية : « ليس فيها مَعْلم لأحد » أى ليس فيها علامة لأحد من أبنية مرتفعة ، أو قصور ممتعة ، أو تلول ، أو جبال ممتنعة .

قال فى الفتح : وفيه ـــ أى الحديث المتقدم ـــ إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلت وأعدمت وأن أرض الموقف تجددت . قال : وقد وقع للسلف خلاف فى المراد بقوله تعالى : ﴿ **يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ** ﴾ (إبراهيم : ٤٨) هل المراد تبديلها تغيير ذاتها وصفاتها ، أو تغيير صفاتها فقط ؟ .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبرى فى تفاسيرهم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) الآية . قال تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة ، لم يسفك فيها دم حرام ، ولم يعمل عليها خطيئة .

قال الحافظ : ورجاله رجال الصحيح ، وهو موقوف .

ولأحمد من حديث أيوب « أرض كالفضة البيضاء » .

وذكر الحافظ عدة من الآثار فى ذلك ثم قال :

وأما من ذهب إلى أن التغيير إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها ، فمستنده ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال : « إذا كان يوم القيامة مُدَّت الأرض مَدَّ الأديم وحشر الخلائق » .

ومن حديث جابر رفعه : « تمد الأرض من الأديم ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » قال : وهذا وإن كان ظاهره يخالف القول الأول فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا ، لكن أرض الموقف غيرها . ا . هـ ملخصاً .

وقد جاء فى الحديث : « إن الأرض حين تبدل غير الأرض ، يكون الناس على الصراط » .

فقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها « أنها سألت النبى ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض** ﴾ أين يكون الناس حينئذ ؟ قال : على الصراط » .

وأخرج مسلم من حديث ثوبان قال ﷺ « هم فى الظلمة دون الجسر » .

وفى رواية الترمذى قال : « على جسر جهنم » .

ولأحمد من طريق ابن عباس عن عائشة رضى الله عنها قالت : « على متن جهنم » .

قال الحافظ : وقد جمع البيهقى ـــ أى بين ما تقدم ـــ بأن المراد بالجسر الصراط وأن فى قوله : « على الصراط » مجازاً لكونهم يجاوزونه لأن فى حديث ثوبان زيادة يتعين المصير إليها لثبوتها . وكان ذلك عند الزجرة التى تقع عند نقلهم من أرض الدنيا إلى أرض الموقف .

وهكذا يحشر الناس فى أرض مستوية لا ترى فيها عوجاً ، أى انخفاضاً ولا أمتاً ، أى ارتفاعاً . بحيث إن الناظر إليهم ينظرهم ، والداعى لهم يسمعهم وقد ازدحمت عليهم الشدائد والأهوال ، وحلت فيهم الكربات والهموم ، فأحاطت بهم النار ، ودنت الشمس منهم ، وساورتهم الهموم والغموم ومهما كانت هموم الدنيا ثقيلة ، فإن همّ الآخرة أثقل ، إلا من أمنه الله وسلمه .

قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يَلْبسوا إيمانهم بِظُلمٍ أولئك لهم الأمنُ وهم مُهْتدون** ﴾ (الأنعام : ٨٢) .

وقد أشار المصطفى ﷺ إلى شدة كربات يوم القيامة ، وأنها أعظم من

كربات الدنيا ، حيث قال : « من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » .

أى : وما كربات الدنيا فى جانب كربات الآخرة إلا شىء يسير من كثير .

يقول الإمام الغزالى رضى الله عنه :

« تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأراضين السبع من : ملك ، وجن ، وإنس ، وشيطان ، ووحش ، وسبع ، وطير . فأشرقت عليهم الشمس ، وقد تضاعف حرها ، وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رؤوس العالمين ، كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ، ولم يمكن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش ، وبين مضح لحر الشمس ، قد صهرته بحرها ، واشتد كربه وهمه وغمه من وهجها . ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدة ازدحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء . فاجتمع وهج الشمس ، وحر الأنفاس ، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ، ففاض العرق من أصل كل شعرة حتى سال على صعيد القيامة ، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه .

قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعاً ، ويلجمهم ويبلغ آذانهم » كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح .

وفى حديث آخر : « قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء ، فيلجمهم العرق من شدة الكرب » .

وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : « تدنو الشمس من الأرض يوم

القيامة ، فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ، ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ فخذه ، ومنهم من يبلغ خاصرته ، ومنهم من يبلغ فاه ، وأشار بيده فألجمها فاه ، ومنهم من يغطيه العرق ، وضرب بيده على رأسه هكذا » .

فتأمل يا مسكين فى عرق أهل المحشر وشدة كربهم .

وفيهم من ينادى فيقول : ربِّ أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار .

وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً .

فإنك واحد منهم ، ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق .

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله من حج ، وجهاد ، وصيام ، وقيام ، وتردد فى قضاء حاجة مسلم ، وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ، ويطول فيه الكرب .

ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور ، لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات ، أهون أمراً ، وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيمة شدته ، طويلة مدته .

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم . يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ، ولا يشربون فيه شربة ، ولا يجدون فيه روح نسيم .

قال كعب وقتادة : ﴿ **يوم يقومُ الناسُ لربِّ العالمين** ﴾ (المطففين : ٦) قال : يقومون مقدار ثلاثمائة عام . بل قال عبد الله بن عمر : وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال : « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » .

وقال الحسن : ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة ، لا يأكلون فيها أكلة ، ولا يشربون فيها شربة ؛ حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً ،

واحترقت أجوافهم جوعاً ، انصرف بهم إلى النار ، فَسُقوا من عين آنية ، قد آن حرها ، واشتد لفحها .

فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به ، كلم بعضهم بعضاً فى طلب من يكرم على مولاه ، ليشفع فى حقهم . فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم وقال : دعونى ، نفسى نفسى . شغلنى أمرى عن أمر غيرى . واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال : قد غضب اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعةُ إلاَّ مَنْ أذن له الرحمٰنُ ورَضِىَ له قَوْلاً** ﴾ (طه : ١٠٩) .

فتأمل فى طول ذلك اليوم ، وشدة الانتظار فيه ، حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر .

واعلم أن من طال انتظاره فى الدنيا للموت ، لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات ، فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة .

قال ﷺ ، لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » .

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين .

فما دام يبقى لك نفَس من عمرك ، فالأمر إليك ، والاستعداد بيديك .

فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال ، تربح ربحاً لا منتهى لسروره .

فاستعد لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه .

يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كُوِّرت ، والجبال قد سُيِّرت ، والعشار قد عُطِّلت ، والوحوش قد حُشرت ، والبحار قد سُجِّرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زُوِّجت ، والجحيم قد سُعِّرت ، والجنة قد أُزْلفت ، والجبال قد نُسِفت ، والأرض

قد مُدَّت .

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية .

يوم تسير الجبال ، وترى الأرض بارزة .

يوم ترج الأرض فيه رجاً ، وتبس الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً .

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش .

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكارى ، وما هم بسُكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار .

يوم تنسف فيه الجبال نسفاً ، فتترك قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مَرَّ السحاب .

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان .

يوم يمنع فيه العاصى عن الكلام ، ولا يسأل فيه عن الإجرام ، بل يؤخذ بالنواصى والأقدام .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت ، وتشهد ما قدمت وأخرت .

يوم تخرس فيه الألسن ، وتنطق الجوارح .

يوم شَيَّبَ ذكره سيد المرسلين ، إذ قال له الصديق رضى الله عنه : « أراك قد

شِبْتَ يا رسول الله ، قال : شيبتنى هود وأخواتها » وهى : الواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرت .

فيا أيها القارىء العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن ، وتحرك به اللسان ، ولو كنت متفكراً فيما تقرؤه ، لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك ، مما شاب منه شعر سيد المرسلين .

وإذا قنعت بحركة اللسان ، فقد حُرمت ثمرة القرآن .

فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، وقد وصف الله بعض دواهيها ، وأكثر من أساميها ، لتقف بكثرة أساميها ، على كثرة معانيها .

فليس المقصود بكثرة الأسامى ، تكرير الأسامى والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب .

فتحت كل اسم من أسماء القيامة : سر ، وفى كل نعت من نعوتها : معنى .

فاحرص على معرفة معانيها .

ونحن الآن نجمع لك أساميها وهي :

يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الندامة ، ويوم المحاسبة ، ويوم المساءلة ، ويوم المسابقة ، ويوم المناقشة ، ويوم المنافسة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الدمدمة ، ويوم الصاعقة ، ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ، ويوم الراجفة ، ويوم الرادفة ، ويوم الغاشية ، ويوم الداهية ، ويوم الآزفة ، ويوم الحاقة ، ويوم الطامة ، ويوم الصاخة ، ويوم التلاق ، ويوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب ، ويوم المآب ، ويوم العذاب ، ويوم الفرار ، ويوم القرار ، ويوم اللقاء ، ويوم البقاء ، ويوم القضاء ، ويوم الجزاء ، ويوم البلاء ، ويوم البكاء ، ويوم الحشر ، ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الوزن ، ويوم الحق ، ويوم الحكم ، ويوم الفصل ، ويوم الجمع ، ويوم البعث ، ويوم الفتح ، ويوم الخزى .

ويوم عظيم ، ويوم عقيم ، ويوم عسير ، ويوم الدين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ، ويوم المصير ، ويوم النفخة ، ويوم الصيحة ، ويوم الرجفة ، ويوم الرجة ،

ويوم الزجرة ، ويوم السكرة ، ويوم الفزع ، ويوم الجزع ، ويوم المنتهى ، ويوم المأوى ، ويوم الميقات ، ويوم الميعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ، ويوم الافتقار ، ويوم الانكدار ، ويوم الانتشار ، ويوم الانشقاق ، ويوم الوقوف ، ويوم الخروج ، ويوم الخلود ، ويوم التغابن ، ويوم عبوس ، ويوم معلوم ، ويوم موعود ، ويوم مشهود ، ويوم لا ريب فيه .

ويوم تبلى السرائر ، ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ويوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا .

ويوم يُدَّعون إلى نار جهنم دَعًّا .

ويوم يُسْحبون فى النار على وجوههم .

ويوم تقلب وجوههم في النار .

ويوم لا يجزى والد عن ولده .

ويوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه .

ويوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

يوم لا مرد له من الله ، يوم هم بارزون ، يوم هم على النار يفتنون .

يوم لا ينفع مال ولا بنون .

يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

يوم ترد فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر الضمائر ، وتكشف الأستار .

يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات ، وتظهر الخطيئات .

يوم يُساق العباد ومعهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ، ويسكر الكبير .

فيومئذ وضعت الموازين ، ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم ، وأغلى الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان .

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق ، فقارفت الفجور ؟ .

فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟ .

فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين ، وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول : ﴿ **اقتربَ للناسِ حسابهم وهم فى غَفْلةٍ مُعْرِضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدثٍ إلا استمعوهُ وهم يلعبون * لاَهيةً قُلوبُهُمْ** ﴾ (الأنبياء : ١ — ٣) .

ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول سبحانه : ﴿ **اقتربتِ الساعةُ وانشقَّ القمرَ** ﴾ (القمر : ١)

﴿ **إنهم يَرَوْنَهُ بعيداً * ونراهُ قريباً** ﴾ (المعارج : ٦ ، ٧)

وَمَا يُدْرِيكَ لعلَّ الساعةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (الأحزاب : ٦٣)

ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً ، فلا نتدبر معانيه ، ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم ، ولا نستعد للتخلص من دواهيه .

فنعوذ بالله من هذه الغفلة ، إن لم يتداركنا الله بواسع رحمته .

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال ، شفاهاً من غير ترجمان ، فتسأل عن القليل والكثير ، والنقير والقطمير .

فبينما أنت فى كرب القيامة وعرقها ، وشدة عظائمها ، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام ، وأشخاص ضخام ، غلاظ أشداء ، أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين ، إلى موقف العرض على الجبار .

قال رسول الله ﷺ : « إن لله عز وجل ملكاً ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام » .

فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم ، منكسرين ، لشدة اليوم ،

مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده .

وعند نزولهم ، لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح ، إلا ويخرون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين .

فهذا حال المقربين ، فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟ .

وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم ، وشدة هيبتهم .

فتفزع الملائكة من سؤالهم ، إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم .

فنادوا بأصواتهم ، منزهين لمليكهم ، عما توهمه أهل الأرض ، وقالوا : سبحان ربنا ، ما هو فينا ، ولكنه آتٍ من بعد .

وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب ، وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع ، وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله : ﴿ **فَلَنسألنَّ الذين أرسِل إليهم ولنسألنَّ المرسلين * فَلَنقصَّنَّ عليهم بعلم وما كنَّا غائبين** ﴾ (الأعراف : ٦ ، ٧)

وقوله : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾

(الحجر : ٩٢ ، ٩٣)

فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ **يوم يجمعُ الله الرسلَ فيقول ماذا أجِبْتُم قالوا لا عِلْم لنا إنك أنت علاَّم الغيوب** ﴾ (المائدة : ١٠٩)

فياشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء ، وتنمحى علومهم من شدة الهيبة ، إذ يقول لهم : ﴿ **مَاذَا أُجِبْتُم** ﴾ وقد أرسلتم إلى الخلائق ، وكانوا قد علموا ، فتدهش عقولهم ، فلا يدرون بماذا يجيبون . فيقولون من شدة الهيبة : ﴿ **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** ﴾

وهم فى ذلك الوقت صادقون ، إذ طارت منهم العقول ، وانمحت العلوم ، إلى أن يقويهم الله تعالى . فيُدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير .

ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له : ﴿ أأنت قُلْتَ للناسِ اتخذونى وأمىَ إلهينِ من دُونِ الله ﴾ ؟ (المائدة : ١١٦) فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين .

فيا لعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال .

ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً . يا فلان ابن فلانة ، هلم إلى موقف العرض .

وعند ذلك ترتعد الفرائص ، وتضطرب الجوارح ، وتبهت العقول ، ويتمنى أقوام أن يذهبوا إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولا يكشف سترهم على ملأ من الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ وأشرقت الأرضُ بنور ربها ﴾ (الزمر : ٦٩) وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد .

وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه ، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه ، فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل ائتنى بالنار ، فيجىء لها جبريل ويقول : يا جهنم أجيبى خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها ، فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت ، وزفرت إلى الخلائق وشهقت ، وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره .

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد ، وقد امتلأت فزعاً ورعباً ، فتساقطوا جثياً على الركب ، وولوا مدبرين .

﴿ يوم ترى كُلَّ أمةٍ جاثية ﴾ (الجاثية : ٢٨)

وسقط بعضهم على الوجوه منكبين ، وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون : نفسى نفسى .

فبينما هم كذلك ، إذ زفرت النار زفرتها الثانية ، فتضاعف خوفهم ، وتخاذلت قواهم ، وظنوا أنهم مأخوذون .

ثم زفرت الثالثة ، فتساقط الخلائق على وجوههم ، وشخصوا بأبصارهم ، ينظرون من طرف خفي خاشع ، وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين ، فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل فقال : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ ؟ .

فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء ، اشتد الفزع على العصاة ، ففر الوالد من ولده ، والأخ من أخيه ، والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظراً لأمره .

ثم يؤخذ واحد واحد ، فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره ، وعن سره وعلانيته ، وعن جميع جوارحه وأعضائه .

قال أبو هريرة : « قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم ، فيلقى العبد ربه فيقول له : ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول العبد : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا ، فيقول : فأنا أنساك كما نسيتنى » .

فتوهم نفسك يا مسكين ، وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى ، يسألك شفاهاً فيقول لك : ألم أنعم عليك بالشباب ، ففى ماذا أبليته ؟ ألم أمهل لك فى العمر ، ففى ماذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال ، فمن أين اكتسبته ؟ وفى ماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم ، فماذا عملت فيما علمت ؟ .

فكيف ترى حياءك وخجلك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك ، وأياديه ومساويك ؟ فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك .

قال أنس رضى الله عنه : « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال : أتدرون مم أضحك ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مخاطبة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : فإنى لا أجير على نفسى إلا

شاهداً منى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً . قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقى . قال : فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول لأعضائه : بُعداً لَكُنَّ وسُحقاً فعنكُنَّ كنت أناضل » .

إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ، ولا يطلع عليه غيره .

قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه ، فيقول عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، فيقول : عملت كذا وكذا ؟ فيقول : نعم ، ثم يقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم » .

وقال ﷺ « من ستر على مؤمن عورته ، ستر الله عورته يوم القيامة » .

✿ ✿ ✿

الفصل الخامس

جملة من وصايا رسول الله

- جدد السفينة فإن البحر عميق .
- ثمرات الحب فى الله .
- أكثر من الزاد فإن السفر طويل .
- أخلص العمل فإن الناقد بصير .
- كلمة حق خالدة .
- الصدق فى القول و الإخلاص فى العمل .
- خفف الحمل فإن العقبة كؤود .
- حزب الله و حزب الشيطان .

جدد السفينة فإن البحر عميق

ويحسن بنا ونحن أمام الوعد الحق ، والبعث بعد الموت ، أن نسلك بك أيها القارىء إلى طريق النجاة ، ماذا أعددت من زاد ليوم المعاد ؟

صم عن الدنيا ، وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

وخير الزاد التقوى ، وما كان عليه سيد الأتقياء محمد ﷺ من الخلق الكريم ، والقلب الرحيم .

اسمع إلى هذه الوصايا الغوالى ، وإلى تلك النصائح العوالى :

عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب فى الله ويبغض فى الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا » رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » رواه مسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سرَّه أن يجد حلاوة الإيـمان فليحبْ المرء لا يحبه إلا لله » رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة أيضا رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته

امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حبا لصاحبه » رواه الطبرانى وأبو يعلى .

وعن أبى إدريس الخولانى قال : دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا وإذا الناس معه ، فإذا اختلفوا فى شيء أسندوه إليه ، وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه فقيل : هذا معاذ بن جبل ، فلما كان من الغد هجرت فوجدته قد سبقنى بالتهجير ، ووجدته يصلى ، فانتظرته حتى قضى صلاته ، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت له : والله إنى لأحبك لله ، فقال : آلله ؟ فقلت : آلله . فقال : آلله ؟ فقلت : آلله ، فأخذ بحبوة ردائى فجذبنى إليه ، فقال : أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىَّ ، وللمتجالسين فىَّ ، وللمتباذلين فىَّ » رواه مالك بإسناد صحيح وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى مسلم قال : قلت لمعاذ : والله إنى لأحبك لغير دنيا أرجو أن أصيبها منك ، ولا قرابة بينى وبينك . قال : فلا شيء ؟ قلت : لله . قال : فجذب حبوتى ثم قال : أبشر إن كنت صادقا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المتحابون فى الله فى ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله ، يغبطهم بمكانهم النبيون والشهداء » .

قال : ولقيت عبادة بن الصامت فحدثته بحديث معاذ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى « حقت محبتى على المتحابين فىَّ ، وحقت محبتى على المتناصحين فىَّ ، وحقت محبتى على المتباذلين فىَّ ، هم على منابر من نور ، يغبطهم النبيون والشهداء والصديقون » رواه ابن حبان فى صحيحه .

وروى الترمذى حديث معاذ فقط ، ولفظه : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« قال الله عز وجل : المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » وقال : حسن صحيح .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يأثر عن ربه تبارك وتعالى يقول « حقت محبتى للمتحابين فىَّ ، وحقت محبتى للمتواصلين فىَّ ، وحقت محبتى للمتزاورين فىَّ ، وحقت محبتى للمتباذلين فىَّ » رواه أحمد بإسناد صحيح .

وعن شرحبيل بن السمط أنه قال لعمرو بن عبسة : هل أنت محدثى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه نسيان ولا كذب ؟ قال : نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : قد حقت محبتى للذين يتحابون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتباذلون من أجلى ، وقد حقت محبتى للذين يتصادقون من أجلى » رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله جلساء يوم القيامة عن يمين العرش وكلتا يدى الله يمين ، على منابر من نور وجوههم من نور ، وليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين ، قيل يارسول الله : من هم ؟ قال : هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى » رواه أحمد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم لعلنا نحبهم ؟ قال : هم قوم تحابوا بنور الله من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم قرأ : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس : ٦٢) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله عبادا يجلسهم يوم القيامة على منابر من نور يغشى وجوههم النور ، حتى يفرغ من حساب الخلائق » رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله

عز وجل : المتحابون بجلالى فى ظل عرشى يوم لا ظل إلا ظلى » رواه أحمد بإسناد جيد .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليبعثن الله أقواما يوم القيامة فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال يا رسول الله جَلِّهم لنا نعرفهم . قال : هم المتحابون فى الله من قبائل شتى وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه » رواه الطبرانى .

وعن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله ، فخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ هذه الآية ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس : ٦٢) رواه أبو داود .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا ، واعلموا أن لله عز وجل عبادا ليسوا بأنبياء ، ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله ، فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس ، وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله أنعتهم لنا ، جَلِّهم لنا ـــ يعنى صِفهم لنا ـــ فَسُرَّ وجه النبى ﷺ بسؤال الأعرابى ، فقال رسول الله ﷺ : هم ناس من أفناء الناس ، ونوازع القبائل ، لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله ، وتصافوا ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسون عليها ، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون ، وهم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة لعمداً من ياقوت عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتحة ، تضيء كما يضيء الكوكب الدرىّ . قال : قلنا يا رسول الله : من يسكنها ؟ قال : المتحابون فى الله ، والمتباذلون فى الله ، والمتلاقون فى الله » رواه البزار .

وروى عن بريدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة غرفا ترى ظواهرها من بواطنها وبواطنها من ظواهرها ، أعدها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه » رواه الطبرانى فى الأوسط .

وروى عن معاذ بن أنس رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان ؟ . قال : أن تحب لله ، وتبغض لله ، وتعمل لسانك فى ذكر الله . قال : وماذا يا رسول الله ؟ . قال : وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك » رواه أحمد .

وعن عمرو بن الجموح رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ، ويبغض لله ، فإذا أحب لله تبارك وتعالى ، وأبغض لله ، فقد استحق الولاية لله تعالى » رواه أحمد والطبرانى ، وفيه رشدين بن سعد .

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :« من أعطى لله ، ومنع لله ، وأحب لله ، وأبغض لله ، وأنكح لله ، فقد استكمل إيمانه » رواه أحمد والترمذى .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فقال : « أي عرى الإسلام أوثق ؟ قالوا : الصلاة . قال : حسنة ، وما هى بها . قالوا : صيام رمضان . قال : حسن وما هو به . قالوا : الجهاد . قال : حسن وما هو به . قال : إن أوثق عرى الإيمان أن تحب فى الله ، وتبغض فى الله » رواه أحمد والبيهقى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الأعمال الحب فى الله ، والبغض فى الله » رواه أبو داود .

وعن أنس رضى الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ : « متى الساعة ؟ قال : وما أعددت لها ؟ قال : لا شيء إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : أنت مع من أحببت . قال أنس : فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبى ﷺ : أنت مع من أحببت . قال أنس : فأنا أحب النبى ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إياهم » رواه البخارى ومسلم .

وقد جاء فى الحكمة للإمام على الرضا رضى الله عنه :

مَنْ نازع الأقيال فى أمرهم ... بات بعيدَ الرأس عن جثته
من لاَعب الثعبان فى كفه ... هيهات أن يَسْلم من لسعته
من عاشر الأحمق فى حاله ... كان هو الأحمق فى عشرته
لا تصحب النذلَ فتردى ... لا خير فى النذل ولا صحبته
من اعتراك الشك فى جنسه ... وحاله فانظر إلى شيمته
من غرس الحنظل لا يرتجى ... أن يجتنى السكر من غرسته
من جعل الحق له ناصرا ... أيده الله على نصرته ..

وفى رواية للبخارى : أن رجلاً من أهل البادية أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : « متى الساعة قائمة ؟ قال : ويلك وما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها إلا أنى أحب الله ورسوله . قال : إنك مع من أحببت . قال : ونحن كذلك ؟ قال : نعم . ففرحنا يومئذ فرحاً شديدا »

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : « كيف ترى فى رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله « الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم . قال : أنت يا أبا ذر مع من أحببت . قال : فإنى أحب الله ورسوله . قال : فإنك مع من أحببت . قال : فأعادها أبو ذر ، فأعادها رسول الله ﷺ » رواه أبو داود .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : « لا

تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى » . رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث هن حق : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، ولا يتولى الله عبدا فيوليه غيره . ولا يحب رجل قوما إلا حشر معهم » رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط بإسناد جيد .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة . ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم » الحديث رواه أحمد بإسناد جيد .

وعنها رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الشرك أخفى من دبيب الذر على الصفا فى الليلة الظلماء ، وأدناه أن تحب على شىء من الجور وتبغض على شىء من العدل ، وهل الدين إلا الحب والبغض . قال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾ (آل عمران : ٣١) رواه الحاكم .

ثمرات الحب فى الله

أولاً : يتذوق حلاوة الإيمان ، فيسرى بجسمه النور المحمدى ، ويتغذى بلبان الإسلام ، فيحيا حياة السعداء .

ثانياً : يحيطه الله برحمته ، ويقيه عاديات شدائد يوم القيامة .

ثالثاً : يجلب له الأمن والسرور ، ويعد فى مصاف السبعة الذين يظلهم برضوانه وإحسانه .

رابعاً : شجرة إيمانه مورقة مزهرة مباركة كاملة .

خامساً : دليل على زيادة محبة الله ورسوله .

سادساً : برهان القبول وعنوان التوفيق .

سابعاً : زيادة درجات فى الجنة بجوار منازل الأبرار .

ثامناً : قلوبهم مطمئنة آمنة من الأهوال ، تتلألأ وجوههم نوراً وسروراً .

تاسعاً : عروة الإيمان الوثقى من تمسك بها نجا .

عاشراً : بشائر الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله المشوبة بالإخلاص لله الدالة على الهداية والنجاح .

الحادى عشر : يحشر مع الصالحين .

الثانى عشر : سلوك حسن وصحبة نافعة ، وسيرة طيبة ، ونية صالحة ، وعيشة سعيدة .

الثالث عشر : له نصيب فى الخير وسهم فى الأجر .

الرابع عشر : يدل على كمال الدين وصفاء السريرة ، والعمل المتقن ، وخوف الله ، ورعاية جانبه ، واحترام كتابه ، وحب سنة حبيبه ﷺ .

الخامس عشر : لا يتسرب إلى من يحب لله الإشراك بالله لأنه يأمن عواقب أعماله ، ويضمن إخلاصه ، ويسلم من شوائب الإلحاد .

أكثر من الزاد فإن السفر طويل

نعم إن السفر طويل ، فَصُمْ عن الدنيا ومعاصيها ، وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صُبحها يوم القيامة .

ما أطول السفر ، لأنه فى عالم البرزخ ، وما وراء البرزخ أعنف من أن يمخُرَ عُبابه سباح ماهر .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ *

وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة : ١٣ — ٣٧) .

صدقت يارب العزة ، وبلغ رسولك .

أخا الإسلام :

أعد قراءة هذا المشهد مرة ومرة ، فإنه يصور لك بكل دقة مدى طول السفر ، ويشرح لك بتفصيل ما سوف يجرى علينا ونحن فى عالم البرزخ .

أرض تدك بالجبال ، وسماء تنشق وتنفطر ، وجنة تنادى على أحبابها ، وجحيم تسعر لأعداء الله .

فاستعدوا لأهوال القيامة ياأولى العقول والألباب ، وانشدوا :

مَثِّل لقلبك أيها المغـــرور   يومَ القيامة والسماء تمـــور
قد كُوِّرتْ شمسُ النهار وضُعِّفَتْ   حَرّاً على رأس العباد تفور
وإذا الجبال تعلَّقت بأصولها   فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجومُ تساقطت وتناثرت   وتبدلت بعد الضياء كدورُ
وإذا العِشار تعطلت عن أهلها   خلت الديار فما بها معمورُ
وإذا الوحوش لدى القيامة أُحضرت   وتقول للأملاك أين نسيرُ
فيقال سيروا تشهدون فضائحا   وعجائبا قد أحضرت وأمور

وإذا الجنين بأمه مُتعلِّقٌ   خَوْفَ الحساب وقلبه مذعورُ
هذا بلا ذنب يخاف لهوله   كيف المقيمُ على الذنوب دهور

أخا الإسلام :

هلا أكثرت من الزاد لطول السفر ؟

أو لم تسمع قول رسول الله ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه ، ومن آذى مسلماً كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل » ؟ .

وفى الحديث : « الندم توبة » .

وقد سُئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال : هى الفزع بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإضمار على أن لا يعود .

وسمع سيدنا على ، رضى الله عنه أعرابيا يقول : اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك ، فقال : ياهذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين . فقال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة ، وللفرائض الإعادة — يعنى القضاء — ورد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود ، وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته ، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصى .

والتوبة بصفتها المذكورة هى المنجية لصاحبها من العقاب .

يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه ابن عساكر عن أنس : « إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب » .

أخا الإسلام :

ما فى الحياة بقاءُ   ما فى الحياة ثبوتُ
نبنى البيوتَ وحتماً   تنهارُ تلك البيوتُ
تموتُ كُلُّ البرايا   سبحان مَنْ لا يموتُ

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فيقْدُمُ على الله كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسيء فيقدم على الله كالعبد الآبق لسيده ، يأتى مولاه خائفا حزينا .

قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم ، قال : فأى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه . قال : فأى الصدقة أوفى ؟ قال : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأى القول أفضل ؟ قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، ودل الناس عليها . قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنياه . قال : عظنى وأوجز . قال : نَزِّهْ ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك ؛ أو يفقدك حيث أمرك .

فبكى الأمير . فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين أو أحزنته . فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه . ثم خرج فبعث إليه بحلى ، فرده ، وقال لا أرضاه لكم ، فكيف آخذه منكم . أ هـ .

جملة من وصايا الرسول

من وصايا رسول الله ﷺ ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : أوصانى رسول الله ﷺ فقال لى : « أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت تكثر حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، وارحم الصغير ، ووقّر الكبير ، تكن من رفقائى يوم القيامة »

ومن وصاياه ﷺ لأبى ذر : « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، وأخلص العمل فإن

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبى ذر أيضا ، قال : « أوصانى خليلى محمد ﷺ بثلاث ، قال : « اسمع وأطع ولو لعبد مجذوع ، وإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبهم بمغرفتك ، وصلِّ الصلاة لوقتها » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبى ذر رضى الله عنه أيضا قال : « أوصانى خليلى ﷺ بسبع لم أتركهن ولا أتركهن : أوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأن أنظر إلى من هو أسفل منى ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأن أصل رحمى ، وإن أدبرت وقطعت ، وأن أستكثر من قول : لا إله إلا الله فإنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لا أسأل الناس شيئا ، وأن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأن أقول الحق وإن كان مراً » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرقد » .

وعن أبى هريرة أيضا : « علمنى رسول الله ﷺ ثلاث خصال ، لا أدعهن حتى أموت : لا أنام إلا على وضوء ، وأن أصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وأن لا أدع صلاة الضحى » .

ومن وصاياه ﷺ قوله لعائشة : « إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقى ثوبا حتى ترقعيه » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أنس رضى الله عنه قال : « خدمت النبى ﷺ وأنا ابن ثمان سنين ، فكان أول ما علمنى أن قال : أحكِم وضوءَك لصلاتك يحبك حفظتك ، ويزد فى عمرك ، يا أنس يا بنى اغتسل من الجنابة وبالغ فيه ، فإن تحت كل شعرة جنابة ، قال قلت : يارسول الله كيف أبالغ فيها ؟ قال : يا أنس أدلك جميع بدنك ، وأفض الماء حتى يبلغ إلى جميع بشرتك ، ورد أصول الشعر ، وأنق بشرتك تخرج من مغتسلك وقد غفر ذنبك . يابنى لا يفوتنك ركعتا الضحى فإنها صلاة الأوابين ، وأكثر الصلاة بالليل والنهار فإنك ما دمت فى الصلاة فإن الملائكة يصلون عليك ، يا أنس إذا قمت إلى الصلاة فانصب

نفسك لله تعالى ، وإذا ركعت فاجعل راحتيك على ركبتيك وفرِّج بين أصابعك وارفع عضديك عن جنبك . وإذا رفعت رأسك فقم حتى يعود كل عضو إلى مكانه ، وإذا سجدت فألزق وجهك بالأرض ولا تنقر نقر الغراب ، ولا تبسط ذراعيك بسط الثعلب وإذا رفعت رأسك من السجود فلا تقع كما يقعى الكلب ، وَضَعْ إليتك بين قدميك وألزق ظاهر قدميك بالأرض ، فإن اللهَ تعالى لا ينظر إلى صلاة لا يتم ركوعها وسجودها . وإن استطعت أن تكون على الوضوء فى يومك وليلتك فافعل فإنه إن يأتك الموت وأنت على ذلك لم تَفُتْكَ الشهادة .

يا أنس إذا دخلت بيتك فسلِّم على أهل بيتك تكثر بركتك وبركة بيتك ، فإذا خرجت لحاجة فلا يقعن بصرك على أحد من أهل قبلتك إلا سلمت عليه تدخل حلاوة الإيمان فى قلبك ، وإن أصبت ذنبا فى مخرجك رجعت وقد غفر لك .

يا أنس لا تبيتن ليلة ، ولا تصبحن يوما ، وفى قلبك غش لأحد من أهل الإسلام ، فإن هذا من سنتى ، ومن أخذ سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى فهو معى فى الجنة .

يا أنس : إذا عملت هذا وحفظت وصيتى فلا يكون شىء أحب إليك من الموت فإن فيه راحتك » .

* * *

ومن وصاياه ﷺ قوله لمعاذ بن جبل « اتق الله حيثِ كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن وصاياه ﷺ ما روى عن العرباض بن سارية رضى الله عنه ، قال : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون . فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مُودِّع ، فأوصنا . قال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد . وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » .

ومن وصاياه ﷺ ما روى عن معاذ بن جبل قال : « قلت يارسول الله

أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه لَيسِيرٌ على من يسره الله عليه : تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جُنَّة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل . ثم تلا ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٦ ، ١٧) ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فأخذ بلسانه ، وقال : كُف عليك هذا . قلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ــ أو قال : على مناخرهم ــ إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

* * *

ومن وصاياه ﷺ لبعض أهله : « لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قطعت أو حرقت ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فإنه من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ، وإياك والمعصية ، فبالمعصية يحل سخط الله » .

ووصاياه ﷺ ونصائحه لا تحيط بها الدواوين ، ولا تستقصيها أقلام الكاتبين .

وقد سار على ذلك النهج القويم والصراط السوى المستقيم ، الصحابة والتابعون ، والعلماء الأجلة العاملون . فكم بذلوا للخلق من النصح الأتم ، وكم حضوا على ما فيه النفع الأعم .

أخلص العمل فإن الناقد بصير

كتب الإمام الغزالى رضى الله عنه إلى الشيخ أبى الفتح بن سلامة :

قرع سمعى أنك تلتمس منى كلاما وجيزا فى معرض النصح والوعظ ، وإنى

لست أرى نفسى أهلاً له ، فإن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟ .

وقد أوصى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام : « يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستح منى » .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسأل ، فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ، والعلم إمام والعمل تابعه ، ومن لم يمش على الجادة ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة كيف ينصح سواه ويعظ غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ، ولا تقبل نصيحته ، فقلما ينتفع بوعظ الواعظ ، ونصح الناصح إذا لم يكن متصفا بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التى ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب .

وقد علق الشارع الوعيدَ الشديدَ على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن المنكر وفعله .

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام أنه كان لا يأمر بشىء إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شىء إلا كان أول تارك له .

وقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة : ٤٤) روى أنها نزلت فى اليهود كانوا يحضون على الصدقة ويبخلون .

وفى الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم وفعل مثل فعلهم .

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ عظيم وتشنيع ذميم .

والمعنى : أفلا تفطنون لقبيح ما ارتكبتم وشنيع ما تعاطيتم ؟ كأنه جعلهم مسلوبى العقول ، لأن العقل يأبى هذا .

وقال البزار عن أبى بَرْزَةَ إن النبى ﷺ قال : « مثل الذى يعلم الخير للناس وينسى نفسه ، مثل الفتيلة تضىء على الناس وتحرق نفسها » .

وفى رواية للطبرانى « كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أراد أن ينصب نفسه إماما ، فعليه بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وقد حكى أن رجلا كان يجلس قريبا من محمد بن واسع ، فسمعه ابن واسع يوما يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول « مالى أرى القلوب لا تخشع ؟ ومالى أرى العيون لا تدمع ، والجلود لا تقشعر ؟ . فقال له ابن واسع : يا عبد الله ما أرى القوم أُتوا إلا من قبلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب استقر فى القلب .

وقيل لحمدون القصار : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ . قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق .

كلمة حق خالدة

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ (التوبة : ١٨) .

ويقول عز من قائل : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ (فاطر : ٢٨) .

ويقول تبارك اسمه : ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا** ﴾ (الأحزاب : ٣٩) .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء » .

وها هو ذا التاريخ المجيد ، تاريخ الإسلام الخالد ، يحدثنا عن رجل من رجالات الأمر بالمعروف الذين إذا قالوا فإنما يضعون أرواحهم على أكفهم رخيصة فى أسواق

الشهادة .

وهذا الرجل لم يقف التاريخ على اسمه ولكنه دخل التاريخ من أشرف أبوابه وأوسعها .

وما أكثر هؤلاء الجنود المجهولين الذين وقفوا المواقف الجليلة الجديرة بأن تسجل بحروف الذهب على صفحات النور .

ولندع الحقائق تكلمنا ، وَلْنصغ إلى صوتها فى خشوع وأدب .

روى أن عبد الملك بن مروان خطب يوما ، فلما انتهى إلى موضع الوعظ فأحسن كل الإحسان إليه ، قام رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون . أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا فى أنفسنا فأنّى ؟ وكيف ؟ وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غدا بين يديه ؟ وإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا ، وحكمناكم فى دمائنا وأموالنا ؟ .

الصدق فى القول و الإخلاص فى العمل

إذا ذكر اسم سفيان الثورى تدانت المعانى الجليلة ، والخصال النبيلة إلى ذهن ذاكره . فاسم سفيان مقارن للزهد والورع ، والإخلاص والتقوى والنقاء .

أليس هو الرجل الذى ملأ أطباق الأرض علما وزهدا ؟

أليس هو القوَّام الصوَّام ، الذى رآه أحدهم فى المنام بعد موته فقال له كيف حالك يا أبا سعيد ؟ فأنشد قائلا :

نظرتُ إلى ربى كفاحا فقال لى
هنيئا رضائى عنك يا ابن سعيد
لقد كنتَ قوَّاما إذا أظلم الدُّجى
بمهجة مشتاق وقلب عميد

فدونك فاختر أى قصر أردته
وزُرْنى فإنى منك غيرُ بعيد

بماذا حدثنا التاريخ عن هذا الإمام الجليل ، وماذا حدث له وهو يخطب المسلمين ذات يوم ؟

استمع يا أخى بأذن قلبك . لقد رووا أن سفيان الثورى رحمه الله ، كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله تعالى ، ويرغبهم فى ثوابه ، ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يتوافدون عليه . فصعد يوما منبره على عادته ، فلما استقر به الجلوس وأراد أن يتكلم ، رفعت إليه امرأة رقعة ، فلما رآها تغير لونه وبكى بكاء شديدا ثم نزل ولم يتكلم . فسأله أصحابه ومن يعز عليه ، أن يخبرهم بما فى الرقعة ، فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيْره
هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ ؟
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به وأنت سقيمُ
ونراك تصلحُ بالرشادِ عُقُولنا
أبدا وأنت من الرشاد عديم
فابدأ بنفسك وانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُسمعُ ما تقولُ ويقتدى
بالقول فيه وينفعُ التعليمُ
لا تنه عن خُلق وتأتى مثله
عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

فلما قرأ ذلك بكى بكاء شديدا حتى أغمى عليه ، فلما أفاق ، قالوا له يا سيدى إن كلامك موزون ، وعرضك مصون تشفى القلوب بوعظك ، وتسلى المحزون ، فكيف يؤثر فى قلبك هذا الكلام ؟ وأنت إمام وأى إمام !! فبكى ،

وقال : أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس ، فأنا أعرف بنفسى من غيرى . ثم فاضت عيناه واشتغل بوجده وجداه . وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يسمعه أو يراه حتى مات رحمه الله .

ولله در القائل فى هذا المعنى :

مواعظ الواعظ لن تقبل حتى يعيها قلبه أولا
ياقوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله فى الملا
أظهر للعالم إحسانه وخالف الرحمن لما خلا

اللهم إنا نعوذ بك من قلب لا يخشع ، وعمل لا يرفع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع .

وقال أبو العتاهية :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما
إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها
كملبس الثوب من عرى وعورته
للناس بادية ما إن يواريها
وأعظم الإثم بعد الشرك تعلمه
فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفتها بعيوب الناس تبصرها
منهم ولا تبصر العيب الذى فيها
تعيب دنيا وناسا عاملين لها
وأنت أكثر منهم رغبة فيها

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى اتخذ له شعارا خالدا يقول فيه : رحم الله امرءا أهدى إلىَّ عيوبى .

صدقت يافاروق هذه الأمة ، فإن صديقك هو من يَصْدُقك ، لا من يُصدِّقك وإن صديقك هو الذى يبصرك بعيبك .

* * *

أخا الإسلام :

إذا عبت أمرا فلا تأتِه
وذو اللبِّ مجتنبٌ ما يعيبُ

قال أحد الحكماء :

ما أقبح التزهيد من زاهد يُزهِدُ الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان فى تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيتُه المسجدُ
إن رفضَ الدنيا فما بالُه يستمنحُ الناسَ ويسترفدُ
الرزق مقسومٌ على قدر يسعى له الأبيض والأسود

وقال غيره :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب إلى مثله

هكذا كانت دعوتهم تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إنها شجرة الإخلاص . وقد أخبر الله تعالى عن جزاء المخلصين فقال : **﴿ إلاَّ الذين تابوا ، وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم للّهِ فأولئك مع المؤمنين وسوف يُؤتِى اللّهُ المؤمنين أجراً عظيماً ﴾**

(النساء :١٤٦)

خفف الحمل فإن العقبة كئود

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّهَ وَلْتَنظُرْ نفسٌ ما قدمتْ لغدٍ واتقوا اللّهَ إن الله خبيرٌ بما تعملون * ولا تكونوا كالذينَ نَسُوا اللّهَ فأنساهم أنفسهم أولئك هُمُ الفاسقون * لا يستوى أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ أصحابُ الجنةِ هُمُ الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لَرأيته خاشعاً مُتصدِّعاً من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لَعلّهم يتفكرون * هو الله الذى لا إله إلا هو عالمُ الغيبِ والشهادة ، هو الرحمن الرحيم * هو اللّهُ الذى لا إله إلا هو الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سُبحان الله عما يُشْركون *

هو اللّهُ الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يُسبحُ له ما فى السماواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم ﴾ (الحشر : ١٨ ــ ٢٤)

من هؤلاء الرجال الصفوة الذين اتقوا الله حق تقاته وأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ، العارف بالله أبو حازم ، الذى جعل نُصْبَ عينيه قول الله تعالى : ﴿ كتبَ الله لأغلبنَّ أنا ورسلى إن الله قوىّ عزيزٌ ﴾ (المجادلة : ٢١) فما قصته مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ؟

لنستمع إلى حقائق التاريخ ، تحدثنا بلسان اليقين ومنطق الحق المبين .

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة :

فقال : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟

قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقل من العمران إلى الخراب .

قال سليمان : فأخبرنى كيف القدوم على الله ؟ .

قال أبو حازم : يا أمير المؤمنين ، أما المحسن فيقدم على الله كالغائب يقدم على أهله ، وأما المسىء فيقدم على الله ، كالعبد الآبق لسيده ، يأتى مولاه خائفا حزينا .

قال سليمان : فأى الأعمال أفضل ؟ .

قال أبوحازم : دعاء الملهوف لمن أحسن إليه .

قال سليمان : فأى الصدقة أوفى ؟ .

قال أبو حازم : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه .

قال سليمان : فأى القول أفضل ؟ .

قال أبو حازم : كلمة حق عند من يخاف .

قال سليمان : فأىُّ الناس أعدل ؟ .

قال أبو حازم : من عمل بطاعة الله ودل الناس عليها .

قال سليمان : أيُّ الناس أجهل ؟ .

قال أبو حازم : من باع آخرته بدنياه .

قال سليمان : عظنى وأوجز .

قال أبو حازم : نَزِّهْ ربك وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك .

فبكى الأمير : فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين .

فقال أبو حازم : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لتبيننه للناس ولا تكتمونه .

ثم خرج فبعث إليه سليمان بشىء من الحلى والجواهر فرده وقال : لا أرضاه لكم فكيف آخذه منكم ؟ اهـ

يرحمك الله يا أبا حازم ، يامَنْ وقفت موقف الأبطال أمام أبواب الدنيا ومتاعها ، فكنت كما كان أمير المؤمنين علىٌّ فى وصفه الدنيا .

قال معاوية بن أبى سفيان لضرار الصدائى وكان من أصحاب الإمام على : ياضرار صِفْ لى علياً .

قال ضرار : اعفنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : لَتصفنه .

قال ضرار : أما إذ لا بد من وصفه .

فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته .

كان والله غزير العَبْرةِ ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه . ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .

يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين .

لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، متمثلا فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، يقول يا دنيا غُرّى غيرى ، إلىَّ تعرضتِ ؟ أم إلىَّ تشوقت ! هيهات هيهات ، لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك حقير . آه من قلة الزاد ، وَبُعْدِ السفر ، ووحشة الطريق .

فبكى معاوية وقال :

يرحم الله أبا الحسن لقد كان كذلك . فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟

قال ضرار : حزن من ذُبِحَ واحدها فى حِجْرِهَا .

حزب الله وحزب الشيطان

يرحم الله هؤلاء الناس . أولئك حزب الله الذين قال فيهم مولانا : ﴿ **فسوف يأتى اللّهُ بقوم يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين يجاهدون فى سبيلِ الله ولا يخافون لَوْمةَ لائم ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء والله واسعٌ عليم * إنما وليُّكم اللّهُ ورسولُهُ والذين آمنوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فإن حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغالبون** ﴾ . (المائدة : ٥٤ ــ ٥٦)

نعم إنهم حزب الله الذين وصف الله شدة إيمانهم بقوله :

﴿ **لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليومِ الآخرِ يُوادُّون من حَادَّ اللّهَ ورسوله ولو كانوا آباءَهم أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أو إخوانهم أو عشيرَتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمانَ وأيدهم بِرُوحٍ منه ويدخلهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزبُ الله ألاَ إن حزبَ الله هُمُ المفلحون** ﴾

(المجادلة : ٢٢)

وإذا كان هؤلاء هم حزب الله فإن من حاد عن طريقهم ، وتنكب عن جادتهم ، فقد دخل فى حزب الشيطان ، لأن القسمة ثنائية ، لا تحتمل ثالثا ، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

﴿ وَقل جاءَ الحقُّ وزهق الباطلُ إن الباطلَ كَان زَهُوقاً ﴾ (الإسراء : ٨١)

وإذا كان القرآن الكريم بيَّن لنا بياناً تفصيليا مواصفات حزب الله ، فذكر أن أول صفاتهم أنهم قوم يحبهم الله ويحبونه .

الثانية ـــ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

الثالثة ـــ يجاهدون فى سبيل الله .

الرابعة ـــ ولا يخافون لومة لائم .

الخامسة ـــ يتولون الله ورسولَهُ والذين آمنوا .

السادسة ـــ لا يُوادون من حاد الله ورسوله مهما كان من صلات النسب ولو كانت أبوة ، أو بنوة ، أو أخوة ، أو عشيرة .

هذه أوصافهم والأسس التى مشوا عليها والمبادىء التى تمسكوا بها ، لا تفريط فى حرف منها .

من أجل ذلك كانوا جديرين بأن يحكم الله لهم بهذه الأحكام المنجية من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

أولاً ـــ فإن حزب الله هم الغالبون .

ثانيا ـــ كتب فى قلوبهم الإيمان .

ثالثا ـــ أيدهم بروح منه .

رابعاً ـــ يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها .

خامساً ـــ رضى الله عنهم ورضوا عنه .

سادساً ـــ شرفهم بأن جعلهم حزبه ، وأضافهم لذاته إضافة تشريف وتكريم .

سابعاً ــ حكم لهم بالفلاح حيث قال : ﴿ أولئك حزبُ الله ألاَ إنَّ حزبَ الله هم المفلحون ﴾ (المجادلة : ٢٢)

من هؤلاء ؟

﴿ محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدَّاءُ على الكفارِ رُحماءُ بينهم تَراهم رُكَّعا سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله وَرِضْواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراةِ ، وَمَثَلُهمْ فى الإنجيل كزرْعٍ أخرج شطأه فآزرهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقه يُعْجِب الزُّراعَ لِيَغِيظ بهمُ الكفارَ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً ﴾ . (الفتح : ٢٩)

أين تلقوا تعاليمهم ؟

وفى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟

وعلى يد من تتلمذوا ؟

وعلى مناهج من درسوا وسلكوا ؟

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مُبيِّناتٍ ومثلاً من الذين خَلَوْا من قبلكم وموعظةً للمتقين * اللّهُ نور السماوات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ المصباحُ فى زُجَاجَةٍ ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرىٌّ يُوقدُ من شجرة مباركةٍ زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زَيْتُهَا يُضىء ولو لم تَمسسْهُ نارٌ نورٌ على نورٍ يهدى الله لنوره مَنْ يشاء ويضربُ الله الأمثالَ للناسِ والله بكل شىءٍ عليم ﴾
(النور :٣٤ ، ٣٥)

أين تربوا ؟

﴿ فى بُيوتٍ أذِنَ اللّهُ أن تُرفعَ ويُذْكرَ فيها اسمُه يُسَبِّحُ له فيها بالغدوِّ والآصال * رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيْعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلَّبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ﴾ . (النور : ٣٦ ، ٣٧)

ما عاقبتهم ؟ .

﴿ ليجزيهم الله أحسنَ ما عملوا ويزيدَهم من فضله والله يرزق مَنْ يشاء

بغير حساب ﴾ . (النور : ٣٨)

﴿ يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تتبعوا خُطُواتِ الشيطان ومَنْ يتَّبع خطواتِ الشيطانِ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، وَلَوْلَا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ولكن الله يُزكِّى مَنْ يشاءُ والله سميعٌ عليم ﴾ . (النور : ٢١)

لقد حذرنا الله تعالى من اتباع الشيطان والانخراط فى حزبه .

﴿ إن الشيطانَ لكم عدوّ فاتخذوه عَدُوا إنما يدعو حِزْبَهُ ليكونوا من أصحاب السَّعير ﴾ (فاطر : ٦)

ما مواصفات أتباع حزب الشيطان ؟ .

﴿ ألم تَرَ إلى الذين تولَّوْا قَوْماً غضِبَ الله عليهم ما هم منكم ولا منهم وَيحلفُونَ على الكذب وهم يعلمونَ * أعدَّ الله لهم عذابا شديداً إنهم ساءَ ما كانوا يعملُون * اتخذوا أيمانَهُمْ جُنَّةً فصدُّوا عن سبيل الله فلهُمْ عذابٌ مُهين * لن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحابُ النارِ هم فيها خالدون * يوم يبعثهُم الله جميعاً فيحْلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألاَ إنهم هُمُ الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذِكْرَ الله أولئك حِزْبُ الشيطان ألاَ إن حزبَ الشيطان هُمُ الخاسرون * إنَّ الذين يُحادُّونَ الله ورسوله أولئك فى الأذلِّين ﴾ (المجادلة : ١٤ — ٢٠)

فإنك ترى فى هذا المشهد القرآنى تحديدا قويا لمنهج حزب الشيطان .

أولا : موالاتهم لأعداء الله .

ثانيا : الكذب على الله .

ثالثا : حلفهم بالله كذبا يوم القيامة واتخاذهم الأيمان جُنَّةً فى الدنيا .

رابعا : استحواذ الشيطان عليهم حتى أنساهم ذكر الله .

ومن هنا حكم الله عليهم فى العذاب الشديد ، وأنهم الخاسرون ، وأنهم الأذلون وكفى بهذه الأحكام خسراناً مبيناً .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
• مقدمة	٥
• الفصل الأول : أهوال القيامة والنجاة منها	٧
– إن زلزلة الساعة شيء عظيم	٩
– ما النجاة ؟	١٤
– فوائد الذكر	١٨
• الفصل الثاني : البعث فى القرآن الكريم	٢٧
– البعث حق	٢٩
– منهج القرآن فى إثبات البعث	٣٧
* الحبة والنواة	٣٩
* أطوار خلق الإنسان	٤٠
* المجادلة فى البعث	٤١
* قوم أحياهم الله بعد موتهم	٤٢
* أصحاب موسى عليه السلام	٤٣
* قصة العزيز	٤٣
* إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام	٤٦
– أدلة أخرى	٤٩
* عالم الأرحام	٥١
* دلالة إحياء الأرض على البعث	٥٤
– تكذيب الجاحدين	٥٩
* شبه المنكرين ودحضها	٥٩
• الفصل الثالث : كلمة العلم فى إثبات البعث	٦٣
– النار من الشجر الأخضر	٦٥
– عود على بدء	٧٠
– عظمة الكون	٧٣

– الخلية وحدة الحياة	٨٠
– موت الخلايا	٨٤
• **الفصل الرابع : بين يدى يوم القيامة**	٨٩
– النفخ فى الصور	٩١
– حديث عن الصور	٩٢
– عجب الذنب	٩٣
– أول من تنشق عنه الأرض	٩٧
– أرض المحشر	٩٨
• **الفصل الخامس : جملة من وصايا رسول الله ﷺ**	١١٥
– جدد السفينة فإن البحر عميق	١١٧
– ثمرات الحب فى الله	١٢٣
– أكثر من الزاد فإن السفر طويل	١٢٤
– جملة من وصايا الرسول ﷺ	١٢٧
– أخلص العمل فإن الناقد بصير	١٣١
– كلمة حق خالدة	١٣٢
– الصدق فى القول والإخلاص فى العمل	١٣٣
– خفف الحمل فإن العقبة كئود	١٣٦
– حزب الله	١٣٩
– حزب الشيطان	١٤٢

رقم الإيداع : ٢٩٩٦ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٢ – ٠٨ – ١٦٨٥ – ٩٧٧

دار البشير ـ القاهرة

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص . ب : ١٦٩ المعادي . ت : ٩٨٧٣٦٨

هذا الكتاب

يحتاج الانسان دائما لمن يُذَكِّره أمر آخرته ، أمر وقوفه بين يدي الله للحساب ، عسى أن يكون ذلك دافعاً له لان يدرك حقيقة الدنيا التي يعيشها ، فيسلك سلوكا صالحا يرضاه ربه ويحمده الناس .

لذلك فقد كانت قضية البعث واليوم الآخر أحد المحاور التي دار عليها القرآن وركز عليها وحشد لها الأدلة على صدقها وحقيتها ، حتى يكون الإنسان على أهْبة الاستعداد لما يتلو انتهاء مدة حياته على هذه الأرض مهما كانت تلك المدة .

والشيخ "عبد الحميد كشك" يتعرض لهذا الموضوع بأسلوبه المعروف والذي عرفه الناس خطيبا وواعظاً ثم كاتباً وهو لا ينسى أن يربط بين الدين والعلم في إثبات البعث ، ثم يتبع ذلك ببعض تلك المواعظ التي تشكل منارات هدى يستضيئ بها السالكون طريقَ الجنة والسائرون على درب الفلاح .

دار البشير

دار البشير - القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص . ب : ١٦٩ المعادي - ت : ٩٨٧٣٦٨

Bibliotheca Alexandrina
0393998

To: www.al-mostafa.com